مُرشِدُ السَّائِلِين
إلى فَهمِ القُرآنِ الكَرِيم
أسئلة وردود قرآنية

المجموعة الثانية

تأليف
مهدي الموسوي الجابري

مركز الدليل العقائدي

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: مرشد السائلين إلى فهم القرآن الكريم
تأليف: السيد مهدي الموسوي الجابري
مراجعة وتصحيح: الشيخ تحسين غازي البلداوي
إخراج وتصميم: صفاء أحمد الشمري
الطبعة: الأولى
سنة الطبع: ٢٠٢٥ م - ١٤٤٧ هـ
الناشر: مركز الدليل العقائدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المركز

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نَزَلَ القرآن على صدره، فبلَّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بينوا ما أَمر اللهُ به ومن حذا حذْوهم إلى يوم الدين، واللعن الدائم المؤبَّد على أعدائهم أجمعين، وبعدُ:

فإن محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1]، وإن القرآن الذي جاء به هو دستور إلهيٌّ للحياة الإنسانية وتبيان واضح لكل شيء من العلوم والمعارف الدينية والإنسانية، مما يَحتاج إليه الناس في حياتهم؛ لأنه متكفِّل لجميع ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم، ومرشد لهم إلى طريق الصواب، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2]، وقوله:

(١) الأحزاب: ٤٠.
(٢) النحل: ٨٩.

﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[١]، وقوله: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾[٢].

إن هذا القرآن هو كتاب الحياة الذي صحّح أوضاع المسلمين، وصحح عقائدهم، وأبطل عقائد المشركين، ونبّه المسلمين إلى مكر الأعداء وتدبيرهم، قال سبحانه: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

وإن هذا القرآن هو مأدبة الله المعروضة أمام المسلمين، مفتوح للقارئين، دليل للحيارى وهدى للضّالّين، وهداية للمسترشدين، ورحمة لمن صدّق به، قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٤].

هذا القرآن هو نور الله المبين الذي ينير للإنسان الظلمات، والركن الثابت الذي يُعتمد عليه في بناء الحياة، والصراط المستقيم الذي يهدي إلى رضا الله تعالى. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

---

(١) الأنعام:٥٩.
(٢) الروم:٥٦.
(٣) الأنعام:١٢٢.
(٤) الإسراء:٩.

لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[١]، فلا حياة في غير القرآن، كيف؟ وهو الروح، فهل هناك حياة بغير روح؟ قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢]، ولقد وصف القرآن الذين عاشوا الحياة على غير هدايته بالموتى، مع أنهم يأكلون، ويشربون، ويروحون، ويغدون، فقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٣].

ووصف الله سبحانه المعرضين عن القرآن بالعمى، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾[٤].

وكيف لا يكون القرآن حياة وفيه كل ما يطلبه العباد للوصول إلى السعادة الدنيوية والأخروية؟ فيه نظام الأسرة، ونظام المجتمع، ونظام الحكم ونظام القضاء، فيه شفاء الأمراض، وهو -وليس سواه- الذي يعزز العقيدة، ويصقل الفكر، ويهذب السلوك.

---

(١) الإسراء:٩.
(٢) الشورى:٥٢.
(٣) النمل:٨٠-٨١.
(٤) طه:١٢٤-١٢٦.

وفيه توجيهات بحقوق الآباء على أبنائهم وحقوق الأبناء على آبائهم، وبالإضافة إلى ذلك، يُبيِّن القرآن حقوق الفرد على المجتمع وحقوق المجتمع على الفرد، وحقوق الزوجين على بعضهما، وحقوق الإخوة والأقرباء والجيران على بعضهم البعض، وعلى قمة هذه الحقوق يُظهر القرآن حقوق الله سبحانه وتعالى على عباده، وبناءً على ذلك، فإن الحياة على وفق القرآن الكريم تتضمن هذه الأسس والقوانين التي تضمن العدالة والأمانة والتعاون في المجتمع، وهي تؤدي إلى تحقيق الخير في الدنيا والسعادة في الآخرة.

فما أنزل الله سبحانه كتابه على نبيه ﷺ إلا لأجل هدف، هو إصلاح الدنيا وتحقيق سعادة الآخرة، وذلك الهدف قد حواه القرآن في ثناياه، وهو كفيل بتحقيق هذا الهدف بالأحكام والشرائع والعظات والعبر، قال الله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[1].

ودعا القرآن الكريم في كثير من آياته إلى التفكر في خلق الله للسماوات والأرض، وللتدبر في الكون ومخلوقاته، وذلك لفهم العظمة والحكمة الإلهية، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ

(١) الكهف: ١-٢.

بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[١].

ودعا إلى التفكّر في خلق الإنسان نفسه والأسرار المودعة فيه، فقال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[٣].

ودعا إلى السير في أقطار الأرض والتفكّر في آثار الماضين والفحص في أحوال الشعوب والجوامع البشريّة وما كان لهم من القصص والتواريخ والعبَر، فقال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٤].

ودعا إلى تعلّم العلوم الطبيعيّة والرياضيّة والفلسفيّة والأدبيّة وسائر العلوم الّتي يمكن أن يصل إليها الفكر الإنسانيّ، فهو يحثّ على تعلّمها لنفع الإنسانيّة وإسعاد البشريّة.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الّتي تؤسس للبشرية نظامًا تحيا به حياة كريمة في دنياها، وسعادة أبدية في أخراها.

---

(١) البقرة:١٦٤.
(٢) الطارق:٥-٧.
(٣) الحج:٥.
(٤) آل عمران:١٣٧.

وانطلاقًا مما تقدم، ومن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»[١]. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا من تعلم القرآن، وعلّمه، وعمل بما فيه، فأنا له سائق إلى الجنة، ودليل إلى الجنة»[٢]. وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء، والنجاة يوم الحسرة، والظل يوم الحرور، والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن، فإنه كلام الرحمن، وحرز من الشيطان ورجحان في الميزان»[٣].

ومن قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «اللهَ الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم»[٤].

ومن قول الإمام الصادق عليه السلام: «ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلم القرآن، أو أن يكون في تعلُّمه»[٥].

ولما مضى أخذ مركز الدليل العقائدي على عاتقه توسيع مجال البحث والدراسة والتأليف حول القرآن الكريم، متعاملًا بعمق مع تفاصيله ومعانيه المتعددة، وليس ذلك فحسب، فقد تصدى لمعالجة الشبهات والتساؤلات التي طُرحت وما زالت تُطرح حول القرآن الكريم، ويسعى جاهدًا لتقديم إجابات شافية على جميع الأسئلة والاستفسارات المتعلقة بالقرآن الكريم، مما يساهم بنحو كبير في تعزيز فهم الناس لكتاب الله الكريم وتوجيههم نحو فهم أعمق وأشمل لمحتواه ومعانيه.

(١) بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٩.
(٢) ميزان الحكمة، ج٨، ص٧٥.
(٣) ميزان الحكمة، ج٨، ص٧٤.
(٤) نهج البلاغة، كتاب ٤٧.
(٥) موسوعة الفقه، ج٩٨، ص١٨٦.

وعلى ضوء ذلك قام المركز بإصدار الجزء الأول من كتابٍ بعنوان "مرشد السائلين إلى فهم القرآن الكريم - أسئلة وردود قرآنية"، وهذا الكتاب من تأليف "مهدي الموسوي الجابري" وصدر بطبعته الأولى. يضم الكتاب مجموعة من الأسئلة والإجابات التي تحمل قيمة كبيرة في تعزيز وعي المجتمع المسلم وفهمه الأعمق للقرآن الكريم.

ونسأل الله العليّ القدير أن يجعله ذخرًا لمؤلفه يوم الحشر، وأن يحشره مع محمّد وآله المنتجبين، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين.

اللجنة العلمية في مركز الدليل العقائدي

النجف الأشرف

جمادى الأولى ١٤٤٧ هـ

١٥/ ١١ / ٢٠٢٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي علّم القرآن، خَلق الإنسان، علّمه البيان، والصَّلاة والسلام الأتمّانِ الأكملانِ على سيّدِ الأوّلينَ والآخرين وأشرفِ الخلقِ أجمعين، سراجِ المهتدين، والمبعوثِ رحمة للعالمين، المصطفى محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، واللعنُ الدائم المؤبَّد على أعدائهم من الأولين والآخرين، وبعدُ:

بين الفينة والأخرى، نجد ثمة من يثير شكوكًا حول القرآن الكريم عمدًا، وينقد بعض آياته جهلًا، ويحمِّلها معانيَ ومفاهيم لا تتفق مع مضمونها مكرًا وخُبثًا، ويسعى لنشرها وبثها بين أفراد المجتمع المسلم وخارجه، عداءً وحقدًا، ساعد في ذلك التطور المستمر لوسائل التواصل الاجتماعي على الإنترنت. وهذه الوسائل أصبحتْ في الواقع أداة لهدم القِيم والمبادئ بدلًا من أن تستخدم لبناء المجتمعات.

إن استهداف كتاب الله وآياته، بالتقليل من قدسيَّته في قلوب المسلمين وتحريضِهم على الخروج عن مساراته واتجاهاته، إلى مسارات أخرى من قِبَل بعض المغرضين، يهدف أساسًا إلى تعزيز معتقداتهم

الباطلة والترويج لأفكارهم الضالّة، وقد قال الله سبحانه في أمثال هؤلاء: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾[١].

وليس ذلك إلا لهيمنة القرآن وتعاليمه - التي تنسجم مع الفطرة الإنسانية - على مستوى العالم بأسره، فما من بقعة من بقاع الأرض يُقرأ فيها كتاب الله إلا وأخذ بمجامع قلوب السامعين، وهيمن على نفوسهم؛ لاشتماله على الحكمة البالغة في معانيه ومبانيه، وأغراضه ومراميه، وعدم تطرُّق الفساد والبطلان إليه، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢]، ولا الاختلاف ولا التناقض، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٣].

وقد فصّل الله سبحانه فيه كل شيء، فقال عزّ من قائل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٤].

فالصفة الأولى: فيه بيانُ كل شيءٍ يتصل بالعقيدة والشريعة والأخلاق والعِبَر والعظات، والصفة الثانية: فيه هدى عظيمٌ، يدل الناس على طريق سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، والصفة الثالثة: هي رحمةٌ لمن آمن به وصدّقه، والصفة الرابعة: أنه بشرى للمسلمين

---

(١) البقرة: ٢٢١.
(٢) فصلت: ٤٢.
(٣) النساء: ٨٢.
(٤) النحل: ٨٩.

المنقادين لأوامر الله ونواهيه، يبشرهم برضوان الله عليهم، وبالسعادة الأبدية الخالدة في الجنة يوم الدين. لهذا وغيره مما لا يبلغه الإحصاء، بادر أعداء الإسلام والسلام والإنسانية بحملات دعائية موجهة ضد القرآن الكريم، لمّا أصبحوا عاجزين أمام تأثير تعاليمه وإرشاداته وتشريعاته الراعية للحياة، فالقرآن يشدد على ضرورة إقامة العدل ومحاربة الظلم والجور، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، والتعاون على البر والتقوى، ويؤكد على قيمة حفظ حقوق الناس، وتعزيز التعايش السلمي بين أفراد المجتمع بمختلف تنوُّعاتهم الثقافية والدينية ... فتلك القيم والمبادئ الإسلامية لا تنسجم مع أجندة المنتقدين، ولا تحفظ مصالحهم التي تقوم على الظلم والاضطهاد، وتنبثق من بيئة فاسدة ومبنية على أساسٍ باطل. فوجودهم وبقاؤهم يعتمد بالدرجة الأساس على تعزيز الفوضى بين المجتمعات وإثارة الصراعات الدينية والمذهبية.

وأفضل رد يمكن تقديمه ضد الحملات الدعائية الموجَّهة ضد القرآن الكريم وقيَمه السامية، هو نشر تعاليمه ومعارفه بين أفراد المجتمع الإسلامي باستخدام الوسائل والأساليب نفسها التي يستخدمها المنتقدون. والعمل بجدٍّ أكبر لنشر الثقافة القرآنية، ونقل مبادئ القرآن التي تعزز قِيم الحياة. ويشمل ذلك فهم آياته ومعرفة غاياته وأهدافه، باستخدام أسلوبٍ سهلِ الفهم ولغةٍ واضحة، الأمر الذي دفعني إلى تأليف كتاب سمّيته «مرشد السائلين إلى فهم القرآن الكريم» على أنه جزء من سلسلةٍ مطوّلة تقدِّم إجاباتٍ شاملةً

على مجموعة متنوعة من الأسئلة المتعلقة بالقرآن الكريم، وفي جزئه الأول هذا أجبتُ على مجموعة من الأسئلة التي وردتني عبر البريد الإلكتروني الخاص بمركز الدليل العقائدي، وهي كالآتي:

١ - كيف يُجمع بين قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ... وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾، وبين كون زوجة لوط خائنة وخبيثة وهو من الطيبين، وامرأة فرعون طيبة وهو من الخبيثين؟

٢ - قيل: لا يصح قول «خليفة الله» لأنه يقتضي غيابه تعالى، ومن قال به فهو مشرك، كما قال ابن تيمية. فهل هذا صحيح؟

٣ - ما الفرق بين (الذُّنوب) بضمّ الذال و(الذَّنوب) بفتحها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ و ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾؟

٤ - هل كانت الأمم السابقة تُحاسَب على النسيان وعلى ما لا تُطيق؟ وإذا كان كذلك فكيف يُحاسِب الله تعالى على ما لا يُطاق؟

٥ - هل كان سؤالُ نبيّ الله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ناشئًا عن شكّه في قدرة الله على الإحياء؟

٦ - يقول بعض المشكِّكين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إنّ في الآية خطأ علميًّا، لأنّ القلب لا يفقه ولا يعقل، بل الدماغ هو الذي يفكر ويدرك. فكيف يُنسب الفقه إلى القلب؟

٧ - كيف يقول القرآن: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، مع أنّه لا يوجد بحرٌ عذب، فجميع البحار مالحة؟

٨ - ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ لغةً وتفسيرًا؟

٩ - كيف تُفَسَّر الآية: ﴿... فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، مع أن ظاهرها يُنسِب الشرك إلى آدم وحواء، والأنبياء معصومون من الشرك؟

١٠ - يقول بعضهم إنّ الخمر ليس حرامًا، لأنّ الله تعالى قال في القرآن: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾، ولم يقل حرّم عليكم، فهل الاجتناب يدلّ على التحريم؟

١١ - يقول بعضهم: إنّ آية التطهير نزلت في نساء النبيّ ﷺ لأنّ قوله تعالى بعدها ﴿وَاذْكُرْنَ﴾ يدلّ على عطفها عليهنّ، فكيف يُجاب عن ذلك؟

١٢ - لماذا خصَّ اللهُ تعالى أبا لهبٍ وزوجتَه بالذِّكر في القرآن الكريم، وبيَّن أنَّهما يعذَّبان في النار دون غيرهما ممَّن آذوا النبيَّ الأكرم ﷺ؟

١٣ - كيف يُمكن تفسيرُ الرواية الواردة في تفسير القمي (ج٢، ص٢٢٩-٢٣٢) التي تُسيء إلى نبيّ الله داود عليه السلام بزعم عشقه لامرأةٍ متزوجةٍ وقتله زوجها ليتزوجها، مع بيان موقف علماء

الشيعة منها دون القول بأنها صدرت تقية؟

١٤ - كيف يُفهَم قوله تعالى: ﴿تِلكَ أُمّةٌ قد خَلت لها ما كَسبَت ولكم ما كَسبتُم ولا تُسألونَ عما كانوا يعملون﴾؟ وهل يصحّ الاستدلال بها على وجوب الإمساك عمّا جرى بين الصحابة؟

١٥ - كيف يكون اللهُ خالق كل اللغات، ولا يستطيع ترجمة القرآن إلى أيّ لغة؟ إذن القرآن فقط للعرب!!

١٦ - في القرآن نقرأ الآية ٤٧ من سورة الحجِّ أنّ اليوم عند الله ألفُ سنةٍ، وفي الآية ٤ من سورة المعارج أنه خمسون ألفَ سنةٍ! فهل اليوم عند الله ألف سنةٍ أو خمسين ألف سنة؟!

١٧ - ما حكم من يلتزم بالصلاة والصيام وسائر العبادات، لكنه يُنكر بعض ما ورد في القرآن من القصص، كقصة قتل الغلام التي وردت في سورة الكهف؟.

١٨ - هل تدلّ آية: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ على أنّ الله يأمر بالفسق؟

١٩ - إذا كان أكثر الناس لا يفهمون آيات القرآن فهمًا صحيحًا، فكيف يكون القرآن حجّةً عليهم؟ أليس ذلك دليلًا على أنّه نزل لفئةٍ خاصةٍ لا يفهمه غيرُها؟

٢٠ - هل يصح أن يُنسب النسيان إلى الله تعالى كما في قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾؟

٢١ – هل قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ يُثبت لله تعالى صفةَ الحسرة؟

٢٢ – كيف ينهى القرآن عن الفرح في قوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، ثم يأمر به في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾؟ أ ليس في ذلك تنافٍ؟

٢٣ – هل يمكن الجمع بين رحمة الله المطلقة التي يعبّر عنها قول القرآن: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وبين ما في القرآن من آيات العذاب والخلود في النار، وصورة «الإله المعذِّب» التي ركّز عليها بعض الخطاب الديني؟

٢٤ – كيف يقول القرآن إنّ الأرض خُلقت قبل السماء، مع أنّ العلم يثبت أنّها وُجدت بعدها؟

٢٥ – لماذا قال الله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مع أنّ الناس قد وقعوا في الريب من القرآن؟

٢٦ – كيف تُفهَم الآية ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾؟ وهل الشرّ من عند الله؟

٢٧ – كيف يُقال إنّ القرآن يتّسع للمخترعات الحديثة كالذكاء الاصطناعيّ، مع أنّه لم يذكرها نصًّا؟

٢٨ – هل دلّ القرآن على عذاب القبر، أم أنّه ثابت بالروايات فقط؟

٢٩ - ما الفرق بين النفس والروح، ولماذا أسند القرآن الموت إلى النفس دون الروح؟ أُريد الجواب وفق البيان القرآني والروائي.

٣٠ - قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. هل الأيام الستة هنا هي من أيامنا الشمسية؟ وما معنى يوم القيامة وطوله في ضوء الروايات؟

٣١ - الآية الكريمة: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[1] تدلّ على وجود صباحٍ ومساءٍ في عالم البرزخ، والغدوّ والعشيّ لا يتحقّقان إلّا بتعاقب الشمس والقمر، فهل يعني ذلك أنّ في البرزخ ليلًا ونهارًا كالدنيا؟

٣٢ - كيف نوفّق بين قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، و﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، وبين عدل الله تعالى الذي لا يُجبِر أحدًا على الكفر؟

٣٣ - إذا كانت سلامة جسد الميت بعد موته تُعدّ عندكم علامة كرامة ودليل صلاح، فكيف تفسّرون بقاء أجساد بعض الكفّار والفسّاق محفوظةً لا تبلى؟ أليس يلزم من ذلك أن يكونوا من أهل الكرامة أيضًا؟

٣٤ - إذا كان اللهُ قد خلق في الإنسان الغرائزَ التي تدفعه إلى الشهوة والغضب وحبّ المال، فلماذا يُحاسبه، ويعذّبه إذا استجاب لتلك

(١) غافر: ٤٦.

الدوافع، مع أنها من خلقه تعالى؟ أليس ذلك منافياً للعدل؟

٣٥ - القرآنُ يقول: ﴿وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إيّاه﴾. كما يقول: ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كنْ، فيكون﴾. فما دام اللهُ قد قضى ألّا نعبد إلّا إياه، فلماذا ظلّ أكثر من نصف سكان العالم لا يعبدونه؟

٣٦ - يزعم بعضُ الحداثيّين أنّ القصص القرآنيّ رمزيٌّ لا يُراد به الإخبار عن وقائع حقيقيّة، بل مجرّدُ تمثيلٍ لمعانٍ أخلاقيّة وقِيَميّة، وأنّ الفهم الحرفيّ يُقيِّد النصَّ ويمنعُه من مواكبة الأزمنة.. فهل هذا القول صحيح؟ وكيف يُرَدّ عليه؟

٣٧ - ماذا نجيب عمّن يَسأل: هل القرآنُ الكريم شعرٌ أو نثرٌ؟

٣٨ - يزعم بعضهم أنّ وصف المثلية بكونها «غير طبيعية» فكرة أوروبية مسيحية، وأنّ القرآن لم يذكرها ولم يحرّمها، لأن لفظ «المثلية» غير موجود فيه، فما الجواب؟

٣٩ - إذا كان الله تعالى قد ختم على قلوب بعض العباد وطبع عليها، وقال في كتابه: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾، و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فكيف يكون هناك معنى للإصلاح والهداية بعد أن كانت الضلالة من الله والهداية ليست بأيدي الناس؟

٤٠ - إذا كانت رؤيةُ الله تعالى مستحيلةً، فكيف طلبها نبيّ الله موسى عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾؟ أ لم يكن يعلم باستحالتها

منذ بداية نبوّته؟ وهل تمرّ معرفةُ الأنبياء بالله بمراحل من التكامل العقَديّ؟

٤١ - كيف يُجمَع بين قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الذي يوهم أن الخلود مشروط ببقاء السماوات والأرض، وبين الآيات التي تدلّ على أبديّة الجنة والنار مع أن السماوات والأرض تزول يوم القيامة؟

٤٢ - يستدلّ بعضُ المجسِّمة بقول فرعون في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾[1] على أنّ الله في السماء، فكيف يُردّ على هذا الاستدلال؟

❁❁❁

(١) القصص: ٣٨.

السؤال:

كيف يُجمع بين قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ... وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾، وبين كون زوجة لوط خائنة وخبيثة وهو من الطيبين، وامرأة فرعون طيبة وهو من الخبيثين؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

الخيانة هي انتهاكٌ للأمانة بخرق العهد، قال الراغب في مفرداته: «الخيانة والنفاق واحدٌ إلا أن الخيانة تقال اعتبارًا بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارًا بالدين، ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفةُ الحق بنقض العهد في السر. ونقيض الخيانة: الأمانة، يقال خنت فلانًا، وخنت أمانة فلانٍ، وعلى ذلك قوله: ﴿لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾»[1].

فالخيانة في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص١٦٣.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[١]، ليس المقصود منها الزنا كما هو المتوهَّم، لما ثبت عن رسول الله ﷺ قولُه: «ما بغت زوجةُ نبيٍّ قطّ».

فالمراد من الخيانة في الآية الكريمة ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، في قصة نوح ولوط عليهما السلام، هو التجسس لمصلحة الكفار، وليس خيانة شرفهما، فقد ذكر السيد الشريف المرتضى رحمه الله في كتابه "الأمالي": «الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب أن ينزهوا عن مثل هذه الحال؛ لأنها تعِر، وتشين، وتغض من القدر، وقد جنّب اللهُ تعالى أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ما هو دون ذلك تعظيمًا لهم وتوقيرًا ونفيًا لكل ما ينفِّر عن القبول منهم، وقد حمل ابن عباس ظهور ما ذكرناه من الدلالة على أن تأوُّل قوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط، فخانتاهما على أن الخيانة لم تكن منهما بالزنا، بل كانت إحداهما تخبر الناس بأنه مجنون، والأخرى تدل على الأضياف»[٢].

وجاء في تفسير التبيان: «قال ابن عباس: كانت امرأة نوح وامرأة لوط منافقتين (فخانتاهما) قال ابن عباس: كانت امرأة نوح كافرة، تقول للناس: إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تدل على أضيافه، فكان ذلك خيانتهما لهما، وما زنت امرأة نبي قط، لما في ذلك من التنفير عن الرسول وإلحاق الوصمة به، فمن نسب أحدًا من زوجات النبي إلى الزنا، فقد أخطأ خطأ عظيمًا، وليس

(١) التحريم:١٠.
(٢) الأمالي، ج٢، ص١٤٥.

ذلك قولًا لمحصِّل»[١].

وفي تفسير جمع الجوامع، (فخانتاهما)، يعني «بالنفاق والتظاهر على الرسولين: فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون، وامرأة لوط دلت على ضيفانه»[٢].

وقال العلامة الطباطبائي في سياق تفسير الآية وبيان معنى (فخانتاهما): «وليس إلا ظاهرًا في أنهما كانتا كافرتين، تواليان أعداء زوجيهما، وتسران إليهم بأسرارهما، وتستنجدانهم عليهما»[٣].

وأما أن هذه الآية تتنافى مع قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾، فمدفوع بأن هذه الآية جاءت إثر آيات الإفك وبعد آية "الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك" وحرم ذلك على المؤمنين، وهذا هو التفسير الذي ينسجم مع مفهوم الآية، فقد روي حديث عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «أن هذه الآية كآية "الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة"، هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله مشهورين بالزنا، فنهى الله عن أولئك الرجال والنساء والناس على تلك المنزلة..»[٤].

فالقصد من الخبث في قوله سبحانه ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ...

(١) التبيان في تفسير القرآن، للشيخ الطوسي، ج١٠، ص٥٢.
(٢) تفسير جوامع الجامع، للشيخ الطبرسي، ج٣، ص٥٩٦.
(٣) تفسير الميزان، ج١٠، ص٢٣٥.
(٤) يُنظر: تفسير مجمع البيان، للشيخ الطوسي، ج٧، ص٢٢٠.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾، هو الانحطاط الخُلُقي والسقوط بارتكاب أعمال مخلةٍ بالشرف، والطيب ضد الخبث.

وعليه، يكون الجواب واضحًا؛ لأن نساء الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام لم ينحرفْنَ ولم يخبُثْن أبدًا، وإنما القصد من الخيانة في قصة نوح ولوط عليهما السلام، التجسس لمصلحة الكفار، وليس خيانة شرفهما، وأساسًا إن هذا العيب من العيوب المنفِّرة، ونعلم أن المحيط العائلي للأنبياء عليهم السلام يجب أن يكون طاهرًا من أمثال هذه العيوب المنفِّرة للناس حتى لا يتقاطع مع هدف النبوة في جذب الناس إلى الرسالة الإلهية.

علاوة على ذلك، إن نساء الأنبياء عليهم السلام، لم يكنَّ كافرات منذ البداية، بل يُصَبْنَ بالضلال أحيانًا في ما بعد، ولهذا تستمر علاقة الأنبياء بهنَّ على ما كانت عليه قبل ضلالهن، كما أن امرأة فرعون لم تكن مؤمنة برب موسى حين زواجها، إذ إن موسى عليه السلام لم يكن قد وُلد بعد، وقد آمنت برسالته السماوية بعد أن بعثه الله، ولم يكن لها مخرجٌ إلا بمواصلة حياتها الزوجية والكفاح، حتى انتهت حياتها باستشهادها[1].

والنتيجة، أن معنى خيانة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام، المشار إليها في الآية الكريمة إنما هو التجسس لصالح الكفار، وليس المقصود الزنا، ومعنى الخبث في قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ...

(١) يُنظر: تفسير الأمثل، ج١١، ص٦٣ - ٦٦.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾، هو الانحطاط الخُلُقي والسقوط بارتكاب أعمال مخلّة بالشرف، والطيب ضد الخبث، وضد الشيء خلافه، فلا تنافي بين الآيتين، فصفة الخبث بمعنى الانحطاط الخلقي، أو الزنا لا تصدق على امرأتي نوح ولوط عليهما السلام، لما ثبت من أنه "ما زنت امرأة نبي قط".

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال:

قيل: لا يصح قول «خليفة الله» لأنه يقتضي غيابه تعالى، ومن قال به فهو مشرك، كما قال ابن تيمية. فهل هذا صحيح؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّل القرآن على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

١- دلالة كلمة (خليفة) في الآية ليست بالمعنى اللغويّ الذي يقتضي جعل الإنسان محل الله وبدلًا عنه؛ لأن الدلالة اللغوية الحقيقية للكلمة (مستخلِف) يرحل، و(مستخلَف) يحل محله، ويقوم مقامه، ففي مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ): «الخلافة النيابة عن الغير، إما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلَف»[(١)]، وهذا المعنى الحقيقي يمتنع إيراده بالقرينة النقلية والعقلية، ويأباه الوحي والعقل.

ومن إنعام النظر وإعمال الفكر في حوار الملائكة مع الله جلّ

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٩٤.

وعلا، تتضح حقيقة الاستخلاف، حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[١]، فتحدّثت الملائكة بنقيض حقيقة الاستخلاف التي قد يُضيعها آدم أو بنوه من بعده. فحقيقة الاستخلاف القرآني الذي عَهد به الله سبحانه لآدم عليه السلام وبنيه كامنٌ في تعمير الأرض وإصلاحها، فلا يفسدون فيها، والتعايش على رغم اختلافهم، فلا يسفكون الدماء، والتعبُّد بكلمات الله كما تسبح الملائكة، وتقدس لله، قال الفخر الرازي في تفسيره: «إنما سماه الله خليفة؛ لأنه يخلف اللهَ في الحكم بين المكلفين من خلقه، وهو المرويُّ عن ابن مسعود وابن عباس والسدي، وهذا الرأي مدعومٌ بقوله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾»[٢].

وقال البيضاوي: «الخليفة من يخلف غيره، وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام؛ لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلَف عليه عن قبول فيضه، وتلقي أمره بغير وسط»[٣].

---

(١) البقرة: ٣٠.
(٢) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ج٢، ص٣٨٩.
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص٦٨.

وقال القرطبي في تفسيره: «المعنيُّ بالخليفة هنا -في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل- آدمُ عليه السلام، وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أول رسول إلى الأرض، كما في حديث أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله انبئا كان مرسلًا؟ قال: (نعم)... الحديث»[١].

وقال البغوي في تفسيره: «المراد بالخليفة هاهنا آدم، سماه خليفة؛ لأنه خلَف الجن، أي: جاء بعدهم. وقيل: لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه»[٢].

٢- تناقضات شيخ الوهابية ابن تيمية أكثر من أن تُذكر، وتخبطاته وأخطاؤه الكثيرة أشهر من أن تشهر، فهذا المتلوِّن حكَم بشرك مَن جعل لله خليفةً، فقال: «فمن جعل له خليفةً فهو مشركٌ به»[٣]، في حين هو أول من ينطبق عليه هذا الحكم، ذلك لما وصف عمر بن العزيز بـ (خليفة الله على الأرض)، حيث قال في مجموع الفتاوى ما نصه: «وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه -وهو خليفة الله على الأرض- قد وكّل أعوانًا يمنعون الداخل من تقبيل الأرض، ويؤدبهم إذا قبّل أحدٌ الأرض»[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ج١، ص٢٦٣.
(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، ج١، ص١٠٢.
(٣) مجموع الفتاوى، ج٢٥، ص٤٥.
(٤) مجموع الفتاوى، ج٢٧، ص٩٣.

وقد خالفه في ذلك قومٌ نهلوا من منهله المعوجّ، منهم الشيخ العثيمين، قال: «يجوز أن نقول: خليفة الله؛ لأن الله استخلفه في عباده ليقوم بعدله، ولا يعني ذلك أن الله تعالى ليس بحاضر»[١].

وسُئل العثيمين: «عن قول الإنسان لرجل: "أنت يا فلان خليفة الله في أرضه"؟ فأجاب بقوله: إذا كان ذلك صدقًا بأنْ كان هذا الرجل خليفة، يعني ذا سلطانٍ تام على البلد، وهو ذو السلطة العليا على أهل هذا البلد، فإن هذا لا بأس به، ومعنى قولنا: "خليفة الله" أن الله استخلفه على العباد في تنفيذ شرعه؛ لأن الله -تعالى- استخلفه على الأرض، والله -سبحانه وتعالى- مستخلفنا في الأرض جميعًا وناظر ما كنا نعمل، وليس يراد بهذه الكلمة أن الله تعالى يحتاج إلى أحد يخلفه في خلقه، أو يعينه على تدبير شؤونهم، ولكن الله جعله خليفة يَخلف من سبقه، ويقوم بأعباء ما كلفه الله»[٢].

والنتيجة، أن كلمة "خليفة" لا يراد بها المعنى اللغويّ الذي يقتضي جعل الإنسان محل الله وبدلًا عنه؛ لأن الدلالة اللغوية لكلمة "خليفة" هي مَن يحل محل المستخلف، ويقوم مقامه، بل المراد بها من استخلفه الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ شرعه.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

---

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، ج١٥، ص٢٣٨.
(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين، ج٣، ص١٠٢.

السؤال:

ما الفرق بين (الذُّنوب) بضمّ الذال و(الذَّنوب) بفتحها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ و ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّل القرآن على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

الذُّنُوبَ -بضم الذال- جمع ذنب، وهو ما يرتكبه العبد بحقّ ربّه مِن ترك الواجبات وارتكاب المحرّمات، فيسمى العبدُ مذنبًا، وحقّ المغفرة في هذا النوع من المعاصي يكون لله سبحانه، ويدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[1].

والذَّنوب -بفتح الذال- في الأصل: الدلو العظيم، لا يُقال لها ذَنُوب إلا وفيها ماء، وكانوا يستقون فيها، لكل واحد ذنوب، فجعل الذنوب النصيب، ففي "مجمع البحرين"، قال الطريحي مبينًا معنى (الذَّنوب) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾: «هو بفتح الذال كرسول، أي نصيب من العذاب مثل نصيب أصحابهم

(١) الزمر:٥٣.

ونظرائهم من القرون المهلكة. وذنوب في الأصل: الدلو العظيم، لا يُقال لها ذَنُوب إلا وفيها ماء، وكانوا يستقون فيها، لكل واحد ذنوب، فجعل الذنوب النصيب. ومنه حديث بول الأعرابي في المسجد: ثم أمر بذنوب من ماء فأريق عليه»[١].

وفي "تفسير شبر" أن معنى الذَّنُوب: «أخذ من مقاسمة الماء بالذنوب، وهو الدلو العظيمة»[٢].

وجاء في تفسير الأمثل: «الذَّنُوب: -على وزن قَبول- في الأصل معناه "الفرس التي لها ذنب طويل"، كما تطلق الكلمة ذاتها على الدلو الكبير التي لها ذنب. وكان العرب في السّابق ينزحون ماء البئر بواسطة الحيوانات بأن يهيئوا دلاءً عظيمة متصلة بحبال تعين على سحب الدلاء المملوءة بالماء. وحيث كانت هذه الدلاء تقسم أحيانًا على الجماعات حول البئر، فتنال كلّ مجموعة دلوًا أو أكثر، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى النصيب والسهم أيضًا، وهي في الآية محل البحث بهذا المعنى أيضًا، غاية ما في الأمر أنها هنا تشير إلى السهم الكبير»[٣].

وعليه، يكون معنى قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾، أي: أن للَّذين ظلموا نصيبًا من العذاب ﴿مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ﴾، مثل نصيب نظرائهم من الأمم السّالفة الَّذين أُهلكوا، مثل قوم

(١) مجمع البحرين، للطريحي، ج٢، ص٦٠.
(٢) تفسير القرآن الكريم - تفسير شبر -، للسيد عبد الله شبر، ص٤٩٦.
(٣) تفسير الأمثل، ج١٧، ص١٤٥.

نـوحٍ وعـادٍ وثمـود. وهـو مأخـوذ مـن مقاسـمة السـقّاء المـاء بالـدلاء، بينمـا يكـون معنـى الذُّنُـوبَ -بضـم الـذال- هـو مـا يرتكبـه العبـد بحـقّ ربّـه مـن تـرك الواجبـات وارتـكاب المحرّمـات.

والحمـد للـه أوّلًا وآخـرًا، وصلّـى اللـه، وسـلّم علـى سـيّدنا ونبيّنـا محمّـد وآلـه الطيّبيـن الطاهريـن المعصوميـن المنتجَبيـن.

السؤال:

هل كانت الأمم السابقة تُحاسَب على النسيان وعلى ما لا تُطيق؟ وإذا كان كذلك فكيف يُحاسِب الله تعالى على ما لا يُطاق؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نُزِّل القرآن على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بَيّنوا ما أَمر الله به.

من الواضح أن السؤال يتعلق بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[1].

أولًا: قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

إن الأفعال والتصرفات التي تصدر من المكلَّفين بلحاظ قدرتهم على القيام بها أو فعلها، على ثلاثة أقسام:

(١) البقرة:٢٨٦.

١- ما يمكنهم القيام به بسهولة، ويتمتعون بالقدرة على تنفيذه بسهولة دون عسرٍ وحرج، مثل التحدُّث بصدقٍ أو الكذب وتناول الطعام والشراب، وتندرج ضمن هذا النوع من الأفعال معظم التكاليف الشرعية، فالأوامر والنواهي والمرخَّصات عادة ما تتعلق بأعمالٍ يمكن للمكلفين تنفيذها وأداؤها بلا عسر ولا حرج، وهذا القسم مما لا إشكال عقلًا في جواز التكليف به.

٢- ما لا يمكنهم القيام به، ولا يستطيعون تحمُّله، مثل الطيران في السماء أو البقاء على قيد الحياة دون التنفس، وهذا مما لا إشكال في عدم تعلق تكليفٍ إلهيٍّ به فعلًا وتركًا، ويدل عليه حكم العقل القطعيِّ بقبح تكليف العاقل غيرَه بما لا يقدر عليه، فضلًا عن الحكيم تعالى، وصحيحة هشام عن أبي عبد الله عليه السلام: «الله أكرم من أنْ يكلِّف الناسَ ما لا يطيقون»[١]، وخبر الاحتجاج «وذلك حكمي في جميع الأمم أن لا أكلِّف خلقًا فوق طاقتهم»[٢].

٣- ما يمكنهم القيام به، ولكنْ مع ضيقٍ وشدةٍ وعسر وحرج، مثل صومهم خلال مرضهم أو إنفاقهم كلَّ ما يمتلكون أو قطعهم لحوم أجسادهم عند تنجُّسها. والذي يُستفاد من الكتاب والسُّنة أنّ تعلق التكليف الإلزامي بالفعل الذي فيه عسرٌ وحرجٌ منفيٌّ في هذه الشريعة.

فقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ظاهرٌ في مقام

(١) الكافي، ج١، ص٢٠٨.
(٢) الاحتجاج، ج١، أحمد بن علي الطبرسي، ص٣٤٠.

الامتنان على كافّة المكلّفين في جميع الملل والأديان، فالآية لا تقول: (لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها في هذه الأمّة وفي هذه الشريعة)، بل معناها أنّ المكلّف يكلَّف بقدرِ وسعه دائمًا، وكما أنّ الظّلم ممتنع الصدور منه تعالى، كذلك تكليف الإنسان بما لا يُطاق[1].

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

النسيان على قسمين: قسمٌ لا يمكن التحرُّز عنه، وهو معذورٌ ومعفوٌّ عنه، وهذا القسم من النسيان مرفوعٌ عن جميع الأمم.

والقسم الآخر يمكن التحفُّظ عنه وإنْ كان ذا مشقّةٍ، فهذا القسم لا تكون المؤاخذة عليه قبيحةً؛ لأنه ناشئٌ عن التساهل والتماهل الذي يوجب العقاب، قال سبحانه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[2].

وثمة فرق بين النسيان والخطأ، فالخطأ يُقال عادةً في الأمور التي تقع لغفلةٍ من الإنسان وعدم انتباهٍ منه، كأن يُطلِق رصاصةً ليصيد صيدًا، فتصيب رصاصتُه إنسانًا، فتجرحه.

أما النسيان فهو أنْ يتجه الإنسان للقيام بعملٍ ما، ولكنه ينسى كيف يقوم بذلك، كأنْ يعاقِب المرءُ إنسانًا بريئًا ظنًّا منه أنه المذنب، لنسيانه مميزات المذنب الحقيقي.

---

(١) يُنظر: ثلاث رسائل، اللنكراني، ص٥٦.

(٢) السجدة:١٤.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾.

"الإصر" معناه عقْد الشيء وحبْسه، ويطلَق على الحِمل الثقيل الذي يمنع المرء من الحركة، وكذلك العهد المؤكَّد الذي يقيد الإنسان، ولهذا يطلق "الإصر" على العقاب أيضًا.

وفي هذا المقطع من الآية يَطلب المؤمنون من الله تعالى طلبين: الأول أنْ يَرفع عنهم الفروض الثقيلة التي قد تمنع الإنسان من إطاعة الله، وهذا هو ما ورد على لسان النبي ﷺ بشأن التعاليم الإسلامية، إذ قال: «بعثني بالحنيفية السهلة السمْحة»[1].

والمستفاد من بعض الأخبار اختصاص رفع المؤاخذة في الأحكام التكليفيّة بأمة النبي ﷺ، منها ما رواه عمرو بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: رُفع عن أمّتي أربع خصالٍ: خطؤها ونسيانها وما أُكرهوا عليه وما لم يطيقوا، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾»[2].

والحاصل: فإن آيات القرآن الكريم تفيد أنّ التكاليف الشاقة

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٢، ص٢٢٦، الكافي، ج ٥ ص ٤٩٤ باب كراهة الرهبانية.

(٢) وسائل الشيعة، ج١١، أبواب جهاد النفس، باب ٥٦، ح٢.

لـم تكـن موجـودة فـي أصـل شـرائع الأديـان السـابقة، بـل فُرضـت علـى أنهـا عقوبـاتٌ علـى أثـر عصيـان تلـك الأقـوام وعـدم إطاعتهـا، كحرمـان بنـي إسـرائيل مـن أكل بعـض اللحـوم المحلَّلـة بسـبب عصيانهـم المتكـرِّر، قـال سـبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[1]، وكحرمانهـم مـن كثيـرٍ مـن الطيبـات التـي كانـت قـد أُحلَّـت لهـم، قـال سـبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾[2] [3].

والحمـد للـه أوّلًا وآخـرًا، وصلّـى اللـه، وسـلّم علـى سـيّدنا ونبيّنـا محمّـد وآلـه الطيّبيـن الطاهريـن المعصوميـن المنتجَبيـن.

❁❁❁

(١) الأنعام:١٤٦.
(٢) النساء: ١٦٠.
(٣) يُنظر: تفسير الأمثل، ج٢، ص٣٦٨ - ٣٦٩.

السؤال:

هل كان سؤالُ نبيّ الله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ناشئًا عن شكّه في قدرة الله على الإحياء؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نُزِّل القرآنُ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بيّنوا ما أَمَر الله به.

١- لم يكن سؤال نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام عن الإحياءِ نفسِه بما هو إحياء، بل عن كيفية الإحياء للموتى وكيفية جمع الأعضاء الممزَّقة والأشلاء المتناثرة والأجزاء المتفرِّقة، يدلّ على ذلك وقوع السؤال في الآية الكريمة بـ(كيف) التي يُسأل بها عن الهيأة والكيفية؛ لأنه عليه السلام راسخ العقيدة وثابت الإيمان في قدرة الله سبحانه على الإحياء والإماتة، بدلالة الآية التي سبقتها، من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[1].

(١) البقرة: ٢٥٨.

٢- إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكًّا قط، بل أراد بسؤاله أن يزداد يقينًا، واليقين على ثلاث مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۞ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[٢].

نقرِّب الفرق بين مراتب اليقين الثلاث بمثال:

فعلم اليقين بالنار مثلًا هو مشاهدة المرئيات بتوسُّط نورها، وعين اليقين بها هو معاينة جِرمها، وحق اليقين بها الاحتراق فيها وانمحاء الهوية بها[٣].

وكان لإبراهيم عليه السلام علم اليقين، وسأل الله سبحانه عين اليقين، لا أنه سأله إزالة الشك عن نفسه؛ لأنه كان مؤمنًا بذات الربِّ وصفاته وقدرته على إحياء الموتى، ولم يشكَّ قطُّ، بل سأله ليزداد يقينًا بأنْ يرى بالعِيان ما علّمه بالدليل والجنان[٤].

ففي "الكافي" عن الحسين بن الحكم، قال: «كتبت إلى العبد الصالح [الإمام موسى الكاظم عليه السلام] أُخبره أني شاك، وقد قال إبراهيم عليه السلام: "رب أرني كيف تحيي الموتى" وإني أحب أن تريني شيئًا، فكتب عليه السلام: أن إبراهيم كان مؤمنًا، وأَحب أن يزداد إيمانًا

(١) التكاثر: ٥-٧.
(٢) الواقعة: ٩٥.
(٣) يُنظر: المعارف، الفيض الكاشاني، ص٢٦.
(٤) يُنظر: شرح أصول الكافي، المازندراني، ج١٠، ص٩٦.

وأنت شاك، والشاك لا خير فيه، وكتب: إنما الشك ما لم يأتِ اليقين، فإذا جاء اليقين لم يجُز الشك...»[1].

فهذه الرواية تؤكد أن إبراهيم عليه السلام كان مؤمنًا، وسأل الله سبحانه زيادة إيمانه.

والنتيجة:

١ - سؤال النبي إبراهيم عليه السلام لم يكن عن الإحياء نفسه، بمعنى القدرة على إحياء الموتى، بل كان يتعلق بكيفية الإحياء وكيفية جمع الأعضاء الممزقة والأشلاء المتناثرة والأجزاء المتفرقة.

٢ - إن إبراهيم عليه السلام كان مؤمنًا راسخ العقيدة وثابت الإيمان في قدرة الله سبحانه على الإحياء والإماتة، ولم يكن شاكًّا أبدًا في ذلك، بل أراد بسؤاله زيادةً في اليقين.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

(١) الكافي، ج ٢، الشيخ الكليني، ص ٣٩٩.

السؤال:

يقول بعض المشكِّكين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إنّ في الآية خطأ علميًّا، لأنّ القلب لا يفقه ولا يعقل، بل الدماغ هو الذي يفكر ويدرك. فكيف يُنسب الفقه إلى القلب؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نُزِّل القرآنُ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر الله به.

إنّ "القلب" في القرآن له معان متعددةٌ، منها:

١- بمعنى العقل والإدراك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ...﴾[١].

٢- بمعنى الروح والنفس كقوله سبحانه: ﴿... وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ...﴾[٢].

---

(١) ق:٣٧.

(٢) الأحزاب:١٠.

٣- بمعنى مركز العواطف، كقوله: ﴿... سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...﴾[١]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢].

وزيادة في التوضيح نقول: في وجود الإنسان مركزان قويّان هما:

١- مركز الإدراك، ويتكون من الدماغ وجهاز الأعصاب؛ لذلك نشعر أننا نستقبل المسائل الفكرية بدماغنا حيث تُحلَّل وتُفسَّر. (وإن كان الدماغ والأعصاب في الواقع وسيلة وآلة للروح).

٢- مركز العواطف، وهو عبارة عن هذا القلب الصنوبري الواقع في الجانب الأيسر من الصدر. والمسائل العاطفية تؤثر أول ما تؤثر على هذا المركز حيث تنقدح الشرارة الأولى.

وحينما نواجه مصيبة فإننا نحسّ بثقلها على هذا القلب الصنوبري، وحينما يغمرنا الفرح فإننا نحسّ بالسرور والانشراح في هذا المركز.

صحيحٌ أن المركز الأصلي للإدراك والعواطف هو الروح والنفس الإنسانية، لكنّ المظاهر وردود الفعل الجسمية لها مختلفةٌ، وردود فعل الفهم والإدراك تظهر أولًا في جهاز الدماغ، بينما ردود فعل القضايا العاطفية كالحب والبغض والخوف والسكينة والفرح

(١) الأنفال:١٢.
(٢) آل عمران: ١٥٩

والهمّ فتظهر في القلب بوضوح، ويحسّها الإنسان في هذا الموضع من الجسم.

ممّا تقدم نفهم سبب ارتباط المسائل العاطفية في القرآن بالقلب (العضو الصنوبري المخصوص)، وارتباط المسائل العقلية بالقلب (أي العقل أو الدماغ).

أضف إلى ما تقدم أنّ عضو القلب له وظيفة بارزة في حياة الإنسان وبقائه، وتوقفه لحظةً يؤدي إلى الموت، فماذا يمنع أن تنسب النشاطات الفكرية والعاطفية إليه؟![1].

فالشمس منبعٌ للنور من ذاتها -كما هو معلوم- بينما القمر لا يقوم إلا بأن يعكس النور الذي يتلقاه من الشمس، فنور القمر في الحقيقة ليس سوى انعكاسٍ لنور الشمس، وبهذا يمكن أن نقول بأن القمر من حيث كونه نيّرًا لا وجود له إلا بالشمس.

وما يصح على الشمس والقمر، يصح كذلك على القلب والعقل، فكما أن القمر لا يمكن أن يعطي ضوءًا إلا إذا كان مستنيرًا بالشمس، كذلك العقل لا يمكن أن يؤدي وظيفته بكيفية سوية في إطار الواقع المخصوص بميدانه، إلا ضمن المبادئ التي تنيره وتوجهه.

قال الشيخ معرفة في كتابه "التمهيد": «كانت العرب -ولعلّ البشرية جمعاء- ترى من القلب -ومحلّه الصدر- مركزًا للتعقّل

(١) يُنظر: تفسير الأمثل، ج١، ص٩٠ - ٩١.

والإدراك، وكذا سائر الصفات النفسية، وذلك باعتبار كونه منشأ الحيوية في الإنسان. فمن القلب تنبثّ الحياة، وتزدهر الحيوية في الإنسان، ومنها النشاط الفكري وتجوال الخواطر وسائر أحوال النفس من حبٍّ وبغضٍ وابتهاجٍ وامتعاض!

هذا مع العلم بأنّ البشرية عرفت -منذ أُلوف السنين- أنّ مركز الإدراك هو المخّ ومحلّه الدماغ من الرأس، ومنه اشتقاق الرئاسة لمركزية التدبير. إذن لم تكن مركزية الدماغ للإدراك ممّا تجهله العرب وسائر الناس، فما وجه التوفيق؟»[1].

وذكر العلامة الطباطبائي في "تفسير الميزان" أن "ابن سينا" رجّح أن يكون المُدرِك هو القلب، وأنّ الدماغ وسيلةٌ للإدراك. فكما أنّ الإبصار والسَّمع يحصلان في مراكزهما من المخّ، وتكون العين والأُذُن وسطًا لهذا الحصول، كذلك الدِّماغ وسط للإدراك والتفكير[2].

وقال أيضًا: «لَمّا شاهد الإنسانُ أنّ الشعور والحسّ قد يَبطل في الحيوان، أو يغيب عنه بإغماءٍ أو صرعٍ ونحوهما، ولا تَبطل الحياة ما دام القلب نابضًا، قطع بأنّ منشأ الحياة هو القلب، وسرت منه إلى سائر الأعضاء، وأنّ الآثار الروحيّة وكذا الأحاسيس المُتواجدة في الإنسان -مِن مِثل الشعور والإرادة والحبّ والبغض والرجاء والخوف- كلّها للقلب، بعناية أنّه أَوّل متعلّق للروح، وهذا

(١) التمهيد في علوم القرآن، ج٧، ص٢٤٠.
(٢) يُنظر: الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٢٣٦.

لا ينافي كون كلّ عضوٍ من الأعضاء مبدأ لعملٍ يخصّه، كالدماغ للفكر والعين للإبصار والأُذُن للسمع والرئتَين للتنفّس ونحو ذلك، فإنّها جميعًا بمَنزلة الآلات والوسط إلى ذلك.

ويتأيّد ذلك بما وَجَدَته التجارب العلميّة في الطيور، فهي لا تموت بفقْد الدماغ، سِوى أنّها تفقد الشعور والإحساس، وتبقى على هذه الحال حتّى تموت بفقْد الموادّ الغذائيّة وإيقاف نبضات القلب.

والبحوث العلميّة لم تُوفّق لحدّ الآن للعثور على مصدر الأحكام الجسديّة، أعني عرش التدبير في البدن، إذ إنّها في عين التشتّت والتفرّق في بِنيَتِها ونوعية عملها، هي مجتمعة تحت لواءٍ واحد ومؤتمرة بأوامر أميرٍ واحد، وحدة حقيقية من غير انفصام.

وليس ينبغي زَعْمُ التغافل عن شأن الدِّماغ وما يَخصّه من أمر الإدراك، وقد تنبّه الإنسان لِما عليه الرأس مِن الأهميّة في استواء الجسد مُنذ أقدم الزمان، وقد جرى على ألسنتهم التشبيه بالرأس والاشتقاق منه حيثما يُريدون التعبير بالمبدئيّة في أيّ شيء.

ولكن مع ذلك نَراهم ينسبون الإدراك والشعور وكذا صفات النفس -ممّا للشعور فيه حظّ- إلى القلب المُراد به الروح الساطية على البدن والمُدبّرة له، كما يَنسبونها إلى النفس بمعنى الذات، فلا فرق بين أنْ يُقال: هَواكَ قلبي أو هَوتك نفسي. فأُطلق القلب، وأُريد به النفس؛ باعتبار كونه مبدأ جميع الإدراكات "العقليّة"

والصفـات "النفسـيّة"»[1].

وبالمحصلة، فإن المراد من القلب في قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، هو العقل؛ لأن الفهم والإدراك من شأن العقل، مع أنه لا يمتنع نسبة النشاطات الفكرية والعاطفية إلى القلب باعتباره منشأ الحيوية في الإنسان، من باب تسمية المسبب باسم السبب، أي عبّر بالسبب، وأراد المسبَّب، من نحو قولهم: رعينا الغيث، ويقصدون (النبات) الذي سبَّبه الغيث (المطر) فسُمِّي النبات (غيثًا)؛ لأنَّ الغيث سبب النبات.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

(١) يُنظر: الميزان في تفسير القرآن، ج٢، ص٢٣٤ - ٢٣٥.

السؤال:

كيف يقول القرآن: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، مع أنّه لا يوجد بحرٌ عذب، فجميع البحار مالحة؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على مَن نُزِّل القرآنُ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

تناولَ القرآنُ الكريم الاستدلال على عظمة الخالق عن طريق بيان نِعَمه في النظام الكونيّ، فأشار بعد ذكر المطر في الآيات السابقة إلى عدم الاختلاط بين المياه العذْبة والمالحة: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

وكلمة "مرج" من مادة "المرْج" على وزن فلْج، بمعنى الخلْط أو الإرسال، وهنا بمعنى المجاورة بين الماء العذب والمالح.

وكلمة "عذْب" بمعنى سائغٍ وطيِّب وبارد، وكلمة "فرات" بمعنى لذيذ وهنيء.

وكلمة "ملْح" بمعنى مالح، وكلمة "أُجاج" بمعنى مرٍّ وحارٍّ، وبناءً على هذا فملح وأُجاج نقطتان مقابلتان لعذب وفرات[١].

وقد توهم المتوهِّم أن إطلاق لفظ بحرٍ على النهر يُعدّ خطأ علميًّا، وهذا غير صحيح قطعًا، بل إن قصْر لفظ (بحر) على منهل الماء المالح دون العذب هو الخطأ بعينِه، فلفظ (بحر) يرِد في الفصحى على منهل الماء المالح والماء العذب على السواء.

وما جرى به لسان القرآن في إطلاق لفظ (البحر) على الماء العذب والمالح هو الأصل في العربية، حيث إن لفظ (البحر) في اللغة يُطلق على كلٍّ من البحر المالح والبحر العذب "أي النهر"، يقول معجم لسان العرب: «البحر: الماء الكثير ملحًا كان أو عذبًا، وهو خلاف البَرِّ، سُمِّي بذلك لعمقه واتّساعه، وقد غلب على الملْح حتى قلَّ في العذْب. قال الأزهري: كلّ نهرٍ لا ينقطع ماؤه مثل دجلة والنيل وما أشبههما من الأنهار العذبة الكبار فهو بحرٌ، وقال ابن سيده: وكلُّ نهر عظيمٍ بَحْرٌ، وقال الزجّاج: وكلُّ نهرٍ لا ينقطع ماؤُه فهو بحر»[٢].

وأشار ابن مكّي الصقلي (تـ ٥٠١هـ) في كتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجِنان) إلى غلطِ مَن قصر كلمة البحر على الماء المالح، فقال في باب ما جاء لشيئين، فقصروه على واحد: «لا يقولون: "بحر" إلا لما كان ملحًا خاصة، والبحر يقع على العذب

(١) يُنظر: تفسير الأمثل، ج١١، ص٢٨٣.
(٢) لسان العرب، لابن منظور، ج٤، ص٤١.

والملـح»[١].

وقـال الراغـب الأصفهانـي فـي مفرداتـه: «إنمـا سُـمِّي العـذب بحـرًا لكونـه مـع الملـح، كمـا يُقـال للشـمس والقمـر: قمـران»[٢].

وسُـمّي (البحـر) كذلـك، لعمقـه واتّسـاعه وانبسـاطه، ومنـه قيـل للعالِـم الواسـع العلـم، والكريـم الواسـع المعـروف (بحـرًا)، وقـد ورد إطلاق البحـر علـى المـاء العـذب فـي بعـض أشـعار العـرب، ثـم غلـب علـى المـاء المالـح حتـى قـلّ إطلاقـه علـى المـاء العـذب، وشـاهِدُ إطلاق لفـظ (البحـر) علـى العَـذْب مـن أشـعار العـرب، قـول ابـن مُقْبِـلٍ:

ونحنُ مَنَعْنَا البَحْرَ أن يَشْرَبُوا به وقد كانَ منكُم ماؤُه بمَكانِ[٣].

وقول جرير:

أَعْطَـوْا هُنَيْـدَةَ تَحْدُوهـا ثمانِيَـةٌ ما في عـطائِهِمُ مَـنٌّ ولا سَرَفُ

كُومًا مَهارِيسَ مَثْلَ الهَضْبِ لو وَرَدَتْ ماءَ الفُراتِ لَكـادَ البَحْرُ يَنْتَزِفُ[٤].

إذًا، فمِـن ناحيـة اللغـة: يُطلـق البحـر علـى النهـر كذلـك، فـإنّ البحـر مأخـوذٌ مـن الاتّسـاع، والنهـر كذلـك مأخـوذ مـن الاتّسـاع، فالواسـع يطلـق عليـه بحـر.

(١) تثقيف اللسان وتلقيح الجِنان، لابن مكي الصقلي، ص١٧٣.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص١٠٩.
(٣) تاج العروس، للزبيدي، ج٦، ص٥١.
(٤) لسان العرب، ج٤، ص٤٢.

فلفظ البحر في لغة العرب يُطلق على الماء الكثير الواسع الممتدّ، ملحًا كان أو عذبًا، وقد استخدمه القرآن الكريم بالمعنيين.

فإطلاق كلمة (البحرين) على النهر والبحر معًا في الآية الكريمة هو من باب التغليب، من نحو قولهم: الوالدان أو الأبوان، ويريدون بالأبوين أو الوالدين: الأب والأم، فأطلق عليهما الأبوان تغليبًا، وقولهم للشمس والقمر: قمران.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

السؤال:

ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ لغةً وتفسيرًا؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على مَن نُزِّل القرآنُ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إن الرُّوح في القرآن الكريم، له معانٍ مختلفةٌ، تتناسب مع القرائن الموجودة، فمن الممكن أن تعطي في كل موضوع معنى خاصًّا، فتارة يُراد من الرُّوح روح الإنسان، وأخرى يراد منه القرآن، وثالثة روح القدس، ورابعة ملَك الوحي، فكل ذلك من معاني الروح، والقرائن هي التي تحدِّد لنا المراد في الموضوع، وهذا ما يشار إليه في سائر آيات القرآن.

ومعنى كلمة "الروح" في قوله تعالى: ﴿يُنزِّلُ المَلائِكةَ بالروحِ من أمرِهِ﴾[1] هو كل ما كان سببًا لإحياء القلوب وهدايتها وتهذيب

(١) النحل:٢.

النفوس، كما في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١]، وقوله سبحانه: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[٣].

فمن الواضح أن "الروح" في هذه الآيات ترمز إلى "القرآن" و"الوحي" و"أمر النبوة".

وقد وردت "الروح" بمعانٍ أُخر في مواضع من القرآن الكريم، ولكنْ مع الأخذ بنظر الاعتبار ما ذُكر من قرائن في هذه الآية نخلص إلى أن المراد من "الروح" هو القرآن وما تضمنه الوحي[٤].

وقال العلامة الطباطبائي في تفسيره: «فقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾، الباء للمصاحبة أو للسببية، ولا كثير تفاوت بينهما في المآل كما هو ظاهر عند المتأمل؛ فإن تنزيل الملائكة بمصاحبة الروح إنما هو لإلقائه في روح النبي عليه السلام ليفيض عليه المعارف الإلهية، وكذا تنزيلهم بسبب الروح؛ لأن كلمته تعالى -أعني كلمة الحياة- تحكم في الملائكة، وتحييهم كما تحكم في الإنسان وتحييه»[٥].

(١) الأنفال:٢٤.
(٢) غافر:١٥.
(٣) الشورى:٥٢.
(٤) يُنظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص١٢٩.
(٥) تفسير الميزان، للطباطبائي، ج١٢، ص٢٠٦.

وأما قوله سبحانه في سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾[١].

تنزل أصله تتنزل، والظاهر من الروح هو الروح الذي من الأمر، قال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٢] [٣].

وقيل: إن المقصود بالروح هو جبرائيل الأمين، ويسمى أيضًا الروح الأمين. وقيل: إن الروح بمعنى الوحي بقرينة قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾[٤]، وللروح تفسير آخر يبدو أنه أقرب، وهو أن الروح مخلوقٌ عظيم يفوق الملائكة، فقد روي أن الإمام الصادق عليه السلام سُئل عن الروح، وهل هو جبرائيل؟ قال: «جبرائيل من الملائكة، والروح أعظم من الملائكة، أليس أن الله عز وجل يقول: ﴿تنزل الملائكة والروح﴾؟»[٥]، فالاثنان متفاوتان بقرينة المقابلة.

والروح هو أحد الموجودات، وهو أفضل وأشرف من جميع الملائكة وبضمنها جبرائيل. ويستفاد من الروايات أنّ نزول جبرائيل وتبليغه الوحي بمساعدة الروح ومعيّته، ويستفاد من آية ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، أنّ الملائكة جمع، والروح واحد، وهو غير الملائكة؛ لأنّه عُدّ قسيمًا لها، ويُقال لنفس الإنسان الناطقة

(١) القدر:٤.
(٢) الإسراء:٨٥.
(٣) يُنظر: تفسير الميزان، ج٢٠، ص٣٣٢.
(٤) الشورى:٥٢.
(٥) تفسير البرهان، ج٤، - ص٤٨١١.

روحـاً، لإمـكان تكاملهـا وترقّيهـا وبلوغهـا مرتبـة الـروح، وإلّا فـإنّ النفـس بذاتهـا ليسـت روحًـا.

وذُكـرت تفاسـير أخـرى للـروح هنـا، نعـرض عنهـا لافتقادهـا للدليـل[١].

وقـد تسـأل هنـا فتقـول: فمـا معنـى الـروح فـي قولـه تعالـى: ﴿وَنَفَخْـتُ فِيـهِ مِـنْ رُوحِـي﴾[٢].

الجـواب: قـال الشـيخ الطوسـي فـي التبيـان: «النفـخ فـي الآيـة الاجـراء لريـح فـي الشـيء باعتمـاد، نفـخ ينفـخ إذا اجـرى الريـح باعتمـاد، فلمـا أجـرى اللـه الـروح علـى هـذه الصفـة فـي البـدن، كان قـد نفـخ الـروح فيـه، وأضـاف روح آدم إلـى نفسـه تكرمـة لـه، وهـي إضافـة الملـك، لمـا شـرفه وكرمـه، والـروح جسـم رقيـق روحانـي فيهـا الحيـاة التـي بهـا يجـئ الحـي، فـإذا خرجـت الـروح مـن البـدن، كان ميتـا فـي الحكـم، فـإذا انتفـت الحيـاة مـن الـروح، فهـو ميـت فـي الحقيقـة»[٣].

فالـروح بمعناهـا الشـائع غنيـة عـن كل تأويـل، والغرض منها الإشـارة إلـى نمـو الإنسـان فـي بـدء أمـره بواسـطة الـروح غيـر أن المهـم هـو كشـف السـر عـن سـر إضافتهـا إلـى اللـه تعالـى، فـإن الإضافـات تختلـف وجـوه الاعتبـارات فيهـا حسـب اختـلاف المضافـات، فالخلـق عبيـد اللـه باعتبـار

(١) يُنظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٢٠، ص٣٤٦.
(٢) الحجر:٢٩.
(٣) التبيان في تفسير القرآن، ج٦، ص٣٣٢.

رقيتهم له، والرقية من أظهر صفات العبيد، والأنبياء سفراء الله باعتبار إبلاغهم أحكام الخالق إلى الخلائق، وهذا التبليغ من أظهر صفات السفراء، والكعبة بيت الله باعتبار اجتماع المسلمين فيها كإ خوة، ومن أظهر مزايا البيت جمع شمل الإخوة والعائلة، والمسيح روح الله باعتبار ظهور الكمالات الملكوتية فيه، ومن أظهر صفات الروح أنها مرآة كمالات الملكوت. إذن فالروح تستحق الإضافة إلى الله بهذا الاعتبار، إذ هي مرآة كمالات الملكوت والمظهر الأتم لكمالات الرب وأسراره الغيبية.

فتحصَّل مما تقدم:

١- أن معنى "الروح" في قوله تعالى: ﴿يُنزِّلُ المَلائِكةَ بالروحِ من أمرِهِ﴾[١]، هو كل ما كان سببًا لإحياء القلوب وتهذيب النفوس وهداية القلوب.

٢- إن معنى الروح في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾[٢]، قيل: هو جبرائيل الأمين، ويسمى أيضًا الروح الأمين، وقيل: إن الأقرب في تفسير معنى الروح هو أنه مخلوق عظيم، يفوق الملائكة كما دلت عليه الروايات.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

---

(١) النحل:٢.

(٢) القدر:٤.

السؤال:

كيف تُفَسَّر الآية: ﴿... فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، مع أن ظاهرها يُنسِب الشرك إلى آدم وحواء، والأنبياء معصومون من الشرك؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نُزّل القرآن على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر الله به.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

إن ضمير التثنية في الآية ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾، لا يمكن أن يُفهم منه أنهما آدم وحواء، ما لم يُحدَّد المراد من قوله عزّ وجل: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، هل النفس الواحدة هي الوحدة

(١) الأعراف: ١٨٩-١٩٠.

الشخصية أو النوعية؟

إن قوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، استعمل في القرآن على نحوين:

الأول: الوحدة الشخصيّة: والمراد بها أنّ الله سبحانه خلق الخلق من أبٍ واحدٍ وأُمّ واحدة، وهما آدم وحواء، فهذا الخلق على كثرته ينتهي إليهما، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[1]، فالمراد من (نفس واحدة) هو آدم، ومعنى خلْق الزوجة منها كونها من جنسها، والدليل على أنّ المراد هو الواحد الشخصي قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، والمعنى أنّه سبحانه خلق الخلق من أبٍ واحد وأُمّ واحدة، وجميعهم ينتهون إليهما، ومن ذلك -أيضًا- قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[2]. وواضحٌ أنّ المقصود بالذكر آدم، وبالأنثى حواء.

الثاني: الوحدة النوعيّة: والمراد بها أنّ الله سبحانه خلَق كلَّ إنسانٍ من أب واحد وأُمٍّ واحدة، أي كل واحد من الناس قد وُلد من أبٍ واحد وأم واحدة، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ

(١) النساء:١.
(٢) الحجرات:١٣.

﴿ثَلَاثٍ﴾[١]، فالمراد أنّ كل واحد من الناس قد وُلد من أب واحد وأُمٍّ واحدة، وقد دلّ على ذلك، قوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

ومن القرائن الآتية الحافّة بالآية يتّضح لنا المقصود بالوحدة في الآية أنها الوحدة النوعيّة لا الشخصية:

١ - أنّ الآية وقعت في عداد الآيات التي تعرب عن الميثاق الذي أعطاه الإنسانُ لربّه في شرائط خاصّة، ولكنّه حينما نال النِّعم، ورفَل فيها، طفِق ينقض ميثاقه، وهذه طبيعة الإنسان المجهَّز بالغرائز، ويشير إليها قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[٢]، فإذا كانت هذه طبيعة الإنسان فلا يبعد أن يسأل الله أن يرزقه ولدًا صالحًا، معطيًا لله ميثاقاً بأنْ يشكره على تلك النعمة، ولكنّه عندما ينال النعمة يجعل له شركاء فيما آتاه، وعلى ذلك، فالآية جارية مجرى المَثل المضروب لبني آدم في نقضهم ميثاقهم الذي واثقوه به، دلّ على ذلك ما ورد قبل هذه الآية من حديث الميثاق الذي أعطاه الإنسان لربّه، ولكنّه نقضَه بعده، قال سبحانه قبيل هذه الآيات: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا

(١) الزمر:٦.
(٢) فصلت:٥١.

﴿مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1]، والميثاق الذي ورد في الآية معطوف على ذلك الميثاق الذي ورد في الآيتين، وهذا دليلٌ واضح على أنّ المراد هو تعريف طبيعة الإنسان وتوصيفها بالتعهُّد أوّلًا، والنقض ثانيًا، وليس بصدد بيان حال آدم عليه السلام.

٢ - أنّ سياق الآية ولحنها يوحيان بأنّ الشخص الذي سأل الله أنْ يرزقه ولدًا صالحًا، كان يعيش في بيئة كان فيها آباءٌ وأولاد بين صالح وطالح، فنظر إليهم فتمنّى أنْ يرزقه الله ولدًا صالحًا على غرار ما رآه، غير أنّه لما رزقه الله ذلك الولد الصالح، نقض ميثاقه، أي نقَض شكره لله على ما رزقه من صالح الأولاد، وهذا غير صادق في شأن أبينا آدم وأُمّنا حواء؛ إذ لم يكن في بيئتهم آباء وأولاد صالحون وطالحون حتى يتمنّيا لنفسهما ولداً مثل ما رزقهم الله سبحانه.

٣ - أنّ ذيل الآية يشهد بوضوح على أنّها غير مرتبطة بصفيّ الله آدم؛ وذلك لأنّه سبحانه يقول في ذيلها: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فلو كان المراد من النفس وزوجها في الآية شخصين معيّنين كآدم وحواء، كان من حق الكلام أن يقول: «فتعالى الله عمّا يشركان»، وهذا بخلاف ما أُريد من النفس وزوجها، فقد أُريد فيها الطبيعة الإنسانية في جانبي الذكر والأُنثى؛ إذ حينئذ يصح الجمع لكثرة أفراده.

(١) الأعراف:٧٢-٧٣.

٤ - أنّه سبحانه يقول: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾[١] ومن المعلوم أنّ المراد من الشرك هو الشرك في العبادة، وحاشا أنْ يكون آدم صفيّ الله مشركًا في العبادة، كيف؟ وقد وصفه الله سبحانه بالاجتباء، حيث قال: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلّ﴾[٤]، وقال أيضًا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٥].

فتحصَّل من جميع تلك القرائن وكل الآيات التي جاءت في سياقها، أنها تشهد بوضوحٍ على أنّ الآية تتحدَّث عن صورةٍ تعمُّ جميع الأفراد من الإنسان، إلّا من التجأ إلى الإيمان، فكأنّه سبحانه يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها، إنسانًا يساويه في الإنسانية، فلمّا تغشّى الزوجُ الزوجة، وظهر الحمل دعَوا ربّهما بأنّه سبحانه لو آتاهما ولدًا صالحًا سويًّا ليكونا من الشاكرين لآلائه ونعمائه، فلما آتاهما الله ولدًا صالحًا سويًّا جعل الزوج والزوجة لله شركاء في ذلك الولد الذي آتاهما، فتارة نسبوه إلى الطبيعة، وأُخرى إلى الكواكب،

(١) الأعراف: ١٩١- ١٩٢.
(٢) طه:١٢٢.
(٣) الإسراء:٩٧.
(٤) الزمر:٣٧.
(٥) الأحقاف:٥.

وثالثة إلى الأصنام، فردَّ الله سبحانه على تلك المزاعم بقوله: ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

والنتيجة، أن ضمير التثنية في الآية ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾، لا يُفهم منه أنّ المقصود آدم وحواء؛ لأن القرائن الحافّة بالآية تحدِّد بوضوحٍ أنّ المراد من قوله عزّ وجل: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، هي الوحدة النوعية، أيْ أن الله سبحانه خلق كلَّ إنسانٍ من أب واحد وأُمٍّ واحدة، أيْ كل واحد من الناس قد وُلد من أب واحد وأم واحدة.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

(١) يُنظر: مفاهيم القرآن، للسبحاني، ج٥، ص١٣٧ -١٤١.

السؤال

يقول بعضهم إنّ الخمر ليس حرامًا، لأنّ الله تعالى قال في القرآن: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾، ولم يقل حرّم عليكم، فهل الاجتناب يدلّ على التحريم؟

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

صيَغ التحريم في القرآن الكريم كثيرةٌ ومتنوعة، نذكر أبرزها تمهيدًا للجواب:

١- التحريم بلفظٍ صريح، وما يُشتقُّ منه، مثل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ

(١) النساء:٢٣.
(٢) البقرة:٢٧٥.
(٣) المائدة:٩٦.

إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾[١].

٣- التحريم بصيغة النهي ولفظه، والنهيُ يدلُّ على التحريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٣]، وما ورد بلفظ النهي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[٤]، وهذا القسم أكثرُ الأساليب استعمالًا للدَّلالة على التحريم.

٤- العقوبة المترتِّبة على الفعل، سواء كانتْ في الدنيا أم في الآخرة أم فيهما، مثل قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٥]، فالقذف حرامٌ لترتُّب عقوبة الجَلد عليه، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾[٦]، فالقتل حرامٌ لتوعُّد فاعله بالنار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) الأنعام:١٤٥.
(٢) الأنعام:١٥١.
(٣) الأنعام:١٥٢.
(٤) النحل:٩٠.
(٥) النور:٤.
(٦) النساء:٩٣.
(٧) النور:١٩.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، فأكْلُ مال اليتيم حرامٌ لتشبيهه بأكل النار والتهديد على فعله بالعذاب يوم القيامة.

٥- الألفاظ التي تدلُّ على إنكار الفعل بصيغةٍ مشدَّدة، مثل غضب الله، ولعن الله، والتحذير من الفعل مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[١].

٦- ومن تلك الصيَغ التي تدلُّ على التحريم الأمرُ باجتناب الفعل، مثالُه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

وبعد أن عرفتَ أنّ صيَغ التحريم في القرآن الكريم كثيرةٌ ومتنوِّعة، فيُجاب عن القول بأن لفظ (اجتنبوه لا يعني أنه حرام) من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: قال سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾[٣]، والمراد بالإثم ما يوجبه، وهو الخمر، وجاء في كتاب "الزاهر" أنّ الإثم عند العرب من أسماء الخمْر، وأنشد ابن السكيت:

(١) الأحزاب:٥٧.
(٢) المائدة:٩٠.
(٣) الأعراف:٣٣.

شربْتُ الإثمَ حتى ضلَّ عقلي كذاك الإثمُ يذهبُ بالعقولِ

وأنشد بعضهم في مجلس أبي العباس "نشربُ الإثمَ بالصُّواع جهارًا"(١).

وبِضَمِّ قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾(٢)، إلى ما ذكرناه في الآية السابقة، نخرج بنتيجةٍ مفادها أنّ الله سبحانه حكَم في تلك الآية بكون ما يوجب الإثم محرَّمًا، وحكَم في هذه الآية بكون الخمْر والميسر مما يوجب الإثم، فثبتَ بمقتضاهما تحريمهما، فنقول: الخمر مما يوجب الإثم، وكلُّ ما يوجب الإثم فهو محرَّم، فالخمر محرَّم(٣).

الوجه الثاني: الأمر بالاجتناب في قوله سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، لفظٌ استخدم في الزجر عن الأوثان وعبادتها، قال سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾(٤)، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٥)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾(٦).

كما استخدم لفظُ الاجتناب في ترك كبائر الذنوب والآثام، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

(١) يُنظر الزاهر في معاني كلمات الناس، للأنباري، ص٤١٠.
(٢) البقرة:٢١٩.
(٣) يُنظر: هامش الكافي، ج٦، ص٤٠٧.
(٤) الحج:٣٠.
(٥) النحل:٣٦.
(٦) الزمر:١٧.

وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[٢].

فالاجتناب آكدُ في التحريم من مجرَّد لفظ "حُرِّم"؛ لأن في الاجتناب معنًى زائدًا على مجرَّد التحريم، وهو البُعد كليةً عن الشيء المنهيِّ عنه. قال العلّامة الطباطبائي في الميزان: «وأما قوله تعالى: "﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فتصريحٌ بالنهي بعد بيان المفسدة، ليكون أوقعَ في النفوس، ثم ترجٍّ للفلاح على تقدير الاجتناب، وفيه أشدُّ التأكيد للنهي، لتشبيته أنْ لا رجاء لفلاحِ مَن لا يجتنب هذه الأرجاس»[٣].

وجاء في تفسير التبيان للشيخ الطوسي: «قوله "اجتنبوا" أمرٌ بالاجتناب، أيْ كونوا جانبًا منه في ناحيةٍ، "لعلكم تفلحون"، ومعناه لكي تفوزوا بالثواب. وفي الآية دلالةٌ على تحريم الخمر، وهذه الأشياء الأربعة من أربعة أوجُه:

أحدها: أنه وصفَها بأنها رِجسٌ، وهي النجَس، والنجَس محرَّمٌ بلا خلاف.

الثاني: نسَبها إلى عمل الشيطان، وذلك لا يكون إلّا محرَّمًا.

والثالث: أنه أمَرنا باجتنابه. والأمرُ يقتضي الإيجاب.

---

(١) النساء:٣١.
(٢) النجم:٣٢.
(٣) تفسير الميزان، ج٦، ص١٢٢.

الرابع: أنه جعل الفوزَ والفلاح باجتنابه. والهاء في قوله "فاجتنبوه" راجعةٌ إلى عمل الشيطان، وتقديره: اجتنبوا عمل الشيطان»[١].

وجاء في تفسير الأمثل: «أنّ لتعبير "فاجتنبوه" مفهومًا أبعد؛ إذ إنّ الاجتناب يعني الابتعاد والانفصال وعدم الاقتراب، مما يكون أشدَّ وأقطعَ من مجرَّد النهي عن شرب الخمر»[٢].

فكلما كانتِ الحرمةُ شديدة جاء التعبير بلفظ الاجتناب، بدليل قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾[٣]، ومعلومٌ أنه ليس هناك ذنبٌ أعظم من الشرك بالله عزّ وجلّ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٤].

الوجه الثالث: لو فسّرنا "الاجتناب" في الآية المذكورة وسواها من آيات القرآن الكريم بمعنى مغايرٍ للتحريم، لفتحنا الباب أمام إباحة كثيرٍ من الرذائل والموبقات، بما في ذلك الشرك بالله الذي لا خلاف على حرمته؛ لأن الأمر بالاجتناب عنها ورد في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾[٥]، ومنها، قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

(١) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، ج٤، ص١٧.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزَّل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج٤، ص١٤١.
(٣) الحج:٣٠.
(٤) النساء:٤٨.
(٥) النساء:٣١.

الطَّاغُوتَ﴾[١]، ومنها، قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[٢]، ومنها، قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[٣]، ومنها، قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[٤].

فالمُجتنَبات في الآيات الكريمة ليست بالأمور التي يسهُل تأويل عدم حرمتها، فالآية الأولى تحدَّثت عن - "كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ"، والثانية عن "الطَّاغُوت"، والثالثة عن "الرِّجْس مِنَ الْأَوْثَانِ" و"قَوْل الزُّورِ"، والرابعة والخامسة عن "كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ"، فلو فُسِّر الاجتناب بغير التحريم، لكانت النتيجة إباحةَ ما حرّمتْه النصوص القرآنية صراحةً، وهي كما اتَّضح من أعظم الكبائر وأقبح الموبقات.

وبناءً على ما سبق، فإنّ تفسير "الاجتناب" بغير التحريم في مثل هذه السياقات يُفضي إلى نتائجَ تناقض النصوصَ القرآنية الصريحة بحرمةِ كثيرٍ من المُجتنَبات.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

---

(١) النحل:٣٦.
(٢) الحج:٣٠.
(٣) الشورى:٣٧.
(٤) النجم:٣٢.

السؤال:

يقول بعضهم: إنّ آية التطهير نزلت في نساء النبيّ ﷺ لأنّ قوله تعالى بعدها ﴿وَاذْكُرْنَ﴾ يدلّ على عطفها عليهنّ، فكيف يُجاب عن ذلك؟

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

آيةُ التطهير آيةٌ مستقلة، ولا محذور من اندراجها ضمن الآيات المرتبطةِ بنساء النبيِّ ﷺ، ومثلُه غير عزيزٍ في القرآن الكريم، فإنّ من سُنن العرب أنْ يَعترض بين الكلام وتمامه كلامٌ لا يكون مفيدًا إلّا به، واصطلحوا على هذا الكلام المعترِض، فأسمَوه بـ (الجملة الاعتراضية)، والغايةُ المتوخّاة من هذه الجملة أنّها تفيد تأكيدًا وتسديدًا للكلام الذي اعترضتْ بين أجزائه.

وقول المشتبه: «أن بعد آية التطهير مباشرة تأتي كلمة ﴿وَاذْكُرْنَ﴾؛ لذا فإن الواوَ هنا واوُ عطف»!!

يجاب عنه بالآتي: - فقد نصَّ النحاةُ على أنه لا يلزم توالي المتعاطفَين، وأنه قد يُفصَل أحيانًا بينهما، والذي يعيِّن، ويحدِّد المعطوف والمعطوف عليه هو سياق الكلام، ومن أمثلة الفصل بين المتعاطفين: قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾[١]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾[٢]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[٣]، فـ(أَجَلٌ) في الآية الأولى معطوف على (كَلِمَةٌ)، و(الْمَسِيحَ) في الآية الثانية معطوف على (أَحْبَارَهُمْ)، و(فِسْقًا) في الآية الثالثة معطوف على (مَيْتَةً).

فقد فُصِل بين المعطوف والمعطوف عليه في هذه الآيات الثلاثة، كما هو واضحٌ، والذي حدَّد، وعيَّن المعطوف والمعطوف عليه في هذه الآيات الثلاثة هو سياق الكلام. ولو كان لا بد من مجيء المعطوف بعد المعطوف عليه مباشرة لواجهَنا محذورٌ في فهم قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[٤]، إذ إنّ معنى العطف هنا براءة الله من الرسول ﷺ؛ لأنه يكون معطوفًا على المشركين الذين تبرَّأ اللهُ منهم، وهذا محالٌ؛ لأنه يقتضي الكفر.

---

(١) طه:١٢٩.
(٢) التوبة:٣١.
(٣) الأنعام:١٤٥.
(٤) التوبة:٣.

وهذا النوع من الجُمل ذو حضورٍ وافرٍ وواضح في آيات القرآن الكريم، وقد نبّه على هذا الأسلوب كثيرٌ من المفسِّرين، وبالأخصّ الذين لهم عنايةٌ بالجانب اللغويّ والبلاغي كالزمخشري، حيث أشار إلى هذا الأسلوب في عدّة آياتٍ من القرآن الكريم، منها، قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[١]، قال الزمخشري: «وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ الآية، جملة اعتراضيّة واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه، مؤكّدةٌ لمعنى خطئهم، وما أحسن نظمَ هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم»[٢].

وممّن أشار إلى هذا الأسلوب من المفسِّرين: أبو حيّان أثير الدين الأندلسي في تفسيره "البحر المحيط": قال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣]، قال أبو حيّان: (﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ويكون قوله: ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾ جملةً اعتراضيّة بين ما قبلها وما بعدها)[٤].

وهكذا غيرهما من المفسِّرين تعرَّضوا لذكر هذا الأسلوب (الجملة الاعتراضيّة) وأعرضتُ عن ذكرهم خشية الإطالة، ومن

(١) القصص:٨.
(٢) تفسير الكشّاف، للزمخشري، ج٣، ص٣٩٥.
(٣) آل عمران:٧٣.
(٤) تفسير البحر المحيط، ج٣، ص٢١٤.

أراد الاستزادة فليرجع إلى تفاسير أهل السنّة.

إذن، المفسرون كثيرًا ما يعوِّلون على هذا الأسلوب، وقد اعتمدوا عليه في تفسير كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، فابن عاشور تحدَّث عنه في مقدّمة تفسيره، وبيّن فائدتَه، فقال: «تكثُر في القرآن الجُمل المعترضة لأسبابٍ اقتضت نزولها أو بدون ذلك؛ فإنّ كلَّ جملة تشتمل على حكمةٍ وإرشاد، أو تقويمِ معوَجّ»[١].

وعلى ضوء ما تقدّم: يتّضح أنّ آية التطهير إنما زُجَّت بين الآيات المختصّة بنساء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنحوِ الجملة الاعتراضيّة من باب التأكيد على مقام أهل بيت العصمة عليهم السلام، لانتساب النساء المعنيّات إلى هذا البيت الطاهر.

علاوة على ذلك، فقد صرَّحت عدّةُ روايات بهذه العبارة: (نزلت الآية..) فلو كانت جزءَ آيةٍ كما هو المدّعى لمَا جاءت الأخبار والآثار مؤكِّدةً أنّها آية، منها:

١ - عن عمر بن أبي سلَمة ربيبِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «لمّا نزلت «هذه الآية» على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ في بيت أمّ سلَمة...)، وصرَّح الألبانيّ بصحّته[٢].

٢ - عن أمّ سلَمة رضوان الله عليها أنّها قالتْ: «في بيتي

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١، ص٨١.
(٢) صحيح وضعيف سنن الترمذي، للألباني، ج٧، ص٢٠٥.

نزلتْ «هذه الآية» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾...»[١].

٣ - عن أمّ سلَمة رضوان الله عليها، قالتْ: «... فاجتمعوا على تلك البرمة، يأكلون منها، «فنزلت الآية» ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾...»[٢].

٤ - عن - أبي سعيد الخدري، قال: «قال رسول الله ﷺ: «نزلتْ هذه الآية» في خمسة، فيَّ وفي عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم»[٣].

وغيرها كثيرٌ من الروايات التي جاءتْ بطرقٍ متعدِّدة صرَّحت بالنَصِّ (أنّها آيةٌ) كما هو واضح.

ثم إنك إذا تتبَّعتَ أسلوب الخطاب في الآية الكريمة ستجد أنه ما قبل آية التطهير جاء بصيغة التأنيث: (لَسْتُنَّ - اتَّقَيْتُنَّ - فَلَا تَخْضَعْنَ - وَقُلْنَ) وفي الآية الثانية كذلك: (قَرْنَ - بُيُوتِكُنَّ - تَبَرَّجْنَ - أَقِمْنَ -آتِينَ - أَطِعْنَ)، ثم يتبدل أسلوب الخطاب إلى صيغة التذكير: (عَنْكُمُ - يُطَهِّرَكُمْ)، ثم يعود الخطاب بعد ذلك إلى ما كان عليه من صيغة التأنيث: (اذْكُرْنَ - بُيُوتِكُنَّ)، فاختلاف الضمير في الجمل المعطوفة التي تجيء في سياق واحد غير جائز مثل الكلام عن النساء ثم الانتقال إلى الكلام عن الذكور

(١) مستدرك الحاكم، ج٢، ص٤٥١، ح ٣٥٥٨.
(٢) الشريعة، للآجُرّي، ج٥، ص٢٢٠٩، ح ١٦٩٧.
(٣) المحرر الوجيز، ج٥، ص٣٠٨.

-كما هو موضوع الآية- إلا بوجود قرينةٍ على ذلك، والآية خاليةٌ عن قرينةٍ تشير إلى ذلك الانتقال، وكذلك الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، وهو ما يسمى بالالتفات.

فلو كان المراد بآية التطهير نساء النبي ﷺ، لما عدل من صيغة التأنيث إلى التذكير، ثم عاد بعدها إلى صيغة التأنيث، فأنعم النظر في قوله سبحانه: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۞ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[1].

ولنفرض أنّنا حذفنا آية التطهير، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فلو ضمَمْنا ما قبلها إلى ما بعدها، لوجدنا أنّ المعنى والنّظم لم يختلّا، وهذا يدلّ على أنّ آيةَ التطهير آيةٌ مستقلّةٌ وردت في سياق الآيات لِمصلحةٍ عظيمة.

أَلَا يمكن أنْ يكون كلُّ هذا دليلًا على أنّ المراد من آية التطهير ليس نساء النبي ﷺ؟! أَلَا يكفي في الدليل على ذلك ما في صحيح مسلم في ذيل حديث الثقلين عن زيد بن أرقم، أنه سئل:

(١) الأحزاب:٣٢ و٣٣ و٣٤.

هل نساؤه من أهل بيته؟ قال: «لا، وايم الله! إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلِّقها، فترجع إلى أبيها وقومها»[١].

وغير هذا وذاك، فإنه لم ينقل عن واحدةٍ من نساء النبي ﷺ أنها ادعت شمولها بآية التطهير أو أن إحداهن معنيّة بها، ولو كان لبان، ولكنْ ورد عكس ذلك تمامًا، فقد روى البخاريّ في صحيحه أنّ عائشة قالت: «ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن، إلّا أنّ الله أنزل عُذري»[٢].

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

(١) صحيح مسلم، ج٤، ص١٨٧٤، تـ. عبد الباقي.
(٢) صحيح البخاري، ج٤، ص١٨٢٧، تـ. البغا.

السؤال:

لماذا خصَّ اللهُ تعالى أبا لهبٍ وزوجتَه بالذِّكر في القرآن الكريم، وبيَّن أنَّهما يعذَّبان في النار دون غيرهما ممَّن آذوا النبيَّ الأكرم ﷺ؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إذا أردْنا الوقوفَ على سبب ذكر القرآن الكريم لـ"أبي لهب" تحديدًا دونَ سائر مَن آذَوُا النبيَّ، ﷺ وحاربوه، فلا بدَّ لنا مِن التعرُّف على شخصيتِه ومواقفه المعادية للإسلام بنحوٍ مختصَر.

كان أبو لهبٍ -واسمُه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم- من قريشٍ، وعمَّ النبي، وأحدَ الشجعان في الجاهلية، ومن أشدِّ الناس عداوةً للمسلمين في الإسلام، كان غنيًّا عتيًّا، كبُر عليه أنْ يتبعَ دينًا جاء به ابنُ أخيه، فآذاه، وآذى أنصارَه، وحرَّض عليهم، وقاتلهم، وفيه الآية: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ

﴿مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[١]. مات بعد وقعة بدرٍ بأيام.

وفي "أسباب النزول"، قال الواحديُّ: «لمّا أنزل اللّه تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى رسولُ اللّه الصفا، فصعَد عليه، ثمَّ نادى «يا صباحاه» فاجتمع إليه الناسُ. فقال: يا بَني عبدِ المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بسفْح هذا الجبلِ تريد أنْ تُغِيْر عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يديْ عذابٍ شديد، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائرَ اليوم، ما دعوتَنا إلا لهذا، فأنزلَ اللّهُ تعالى: تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ»[٢].

وفي الرّواية عن "طارق المحاربي" قال: «بينَا أنا بسوقِ ذي المجاز إذا أنا بشابٍّ يقول: «يا أيّها النّاس قولوا لا إله إلّا اللهُ تفلحوا». وإذا برجلٍ خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيّها النّاس إنّه كذّاب، فلا تصدِّقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمّدٌ يزعم أنهّ نبيّ. وهذا عمّه أبو لهب يزعم أنّه كذّاب»[٣].

وفي روايةٍ عن "ربيعة بن عباد" قال: «كنتُ مع أبي أنظرُ إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائلَ، ووراءَه رجلٌ أحول وضيءُ الوجه. يقف رسول الله ﷺ على القبيلة، فيقول: «يا بَني فلان. إنّي رسولُ الله إليكم. آمركم أنْ تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وأنْ

(١) المسد:١-٢.
(٢) أسباب النزول ص٣٧٨.
(٣) مجمع البيان، للشيخ الطوسي، ج١٠، ص٥٥٩.

تصدِّقوني، وتمنعوني حتى أُنفِذ عن الله ما بعثني به». وإذا فرغ من مقالته قال الآخرُ من خلفه: يا بَني فلانٍ هذا يريد منكم أنْ تسلخوا اللات والعزى وحلفاءَكم من الجنِّ، إلى ما جاء به من البِدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتَّبعوه. فقلتُ لأبي: مَن هذا؟ قال: عمُّه أبو لهب»[١].

وفي روايةٍ أُخرى: «وكان مِن عظيمِ خطرِ أبي لهبٍ ضدَّ الدعوة الإسلامية أنّه كلما جاء وفدٌ إلى النّبي ﷺ يسألون عنه عمَّه أبا لهب -اعتباراً بكبره وقرابته وأهميته- كان يقول لهم: إنّه ساحرٌ، فيرجعون، ولا يلقَونه، فأتاه وفدٌ، فقالوا: لا ننصرفُ حتى نراه، فقال: إنّا لم نزل نعالجه من الجنون فتبًّا له وتعسًا»[٢].

تدل هذه الروايات بوضوحٍ على أنَّ أبا لهب كان ملازمًا للنبي ﷺ كظلِّه، يسعى بكلِّ ما أُوتي من قوةٍ لإيذائه وسبِّه بأقبح الألفاظ؛ ولذا كان أشدَّ الناس عداوةً للنبي ورسالته، بل إنه الوحيد الذي لم يوقِّع على ميثاق حماية بَني هاشم للرسول ﷺ، بل وقف في صفِّ أعدائه، فهذا الموقفُ الاستثنائي لأبي لهبٍ يفسِّر سبب نزول سورة المسَد لتردَّ على كفره وعدائه بصراحةٍ وقوة.

وأما امرأةُ أبي لهب "أم جميل"، فهي أختُ أبي سفيان، وعمّةُ معاوية، وقد وُصفت في الآية الكريمة بأنها تحمِل الحطب كثيرًا، وفي رقبتِها حبلٌ مِن ليفِ النخيل.

(١) في ظلال القرآن، ج٨، ص٦٩٧.
(٢) تفسير الفرقان، ج٣٠، ص٥٠٣.

وهنا قد تَسأل: لماذا وصفَها القرآنُ بأنّها حمالةُ الحطب؟

الجواب: قيل: لأنّها كانت تأخذ الحطب المملوء بالشوك، وتضعه على طريق رسول الله ﷺ لتُدمِي قدمَيه. وقيل: إنّه كناية عن النميمة. وقيل: إنّه كناية عن شدّة البخل، فهي مع كثرة ثروتِها أبتْ أن تساعد الفقراء، وكانت شبيهةً بحمّال الحطب الفقير. وقيل: إنّها في الآخرة تحمل أوزارًا ثقيلة على ظهرها.

وبين هذه المعاني، المعنى الأوّل هو الأنسب، وإنْ كان الجمعُ بينها غيرَ مستبعَد أيضًا[1].

وإنْ قلتَ: إن القرآن أخبرَ عن أبي لهب بأنّه سيصلى النّار، أيْ أنّه سيموت كافرًا، ولن يؤمن أبدًا. وبهذا لا يمكن لأبي لهبٍ أنْ يؤمن؛ لأنَّ نبوءة القرآن ستكون عندئذٍ كاذبةً. وإلّا سيكون أبو لهبٍ مجبَرًا على الكفر. وليس له اختيار؟!

الجواب: أن الفلاسفة الإسلاميين أجابوا عن هذا السؤال منذ القديم، وقالوا: إنّ الله سبحانه يعلم ما يفعله كلُّ شخصٍ بالاستفادة من حريتِه واختياره. ففي هذه الآياتِ مثلًا يعلم اللهُ منذ البداية أنّ أبا لهبٍ وزوجتَه سيختاران بإرادتهما وعن رغبتهما طريق الكفر، لا بالإجبار.

وبعبارة أُخرى، إن عنصر الحرية والاختيار أيضًا جزءٌ ممّا هو معلومٌ عند الله تعالى. إنّه على علمٍ بما يعمله العبادُ، وهم

(١) يُنظر: تفسير الأمثل، ج٢٠، ص٥٣٩.

مختـارون متمتِّعـون بـالإرادة والحريـة.

ومِـن المؤكّـد أنّ مثـل هـذا العلـم والإخبـار عـن المسـتقبل تأكيـدٌ علـى الاختيـار، لا علـى الإجبـار[١].

والحمـدُ للـه أوّلًا وآخـرًا، وصلّـى اللـه، وسـلّم علـى سـيّدنا ونبيّنـا محمّـد وآلـه الطيّبيـن الطاهريـن المعصوميـن المنتجَبيـن.

❁❁❁

(١) يُنظر: المصدر نفسه، ج٢٠، ص٥٤١.

السؤال:

كيف يُمكن تفسيرُ الرواية الواردة في تفسير القمي (ج٢، ص٢٢٩-٢٣٢) التي تُسيء إلى نبيّ الله داود عليه السلام بزعمِ عشقه لامرأةٍ متزوجةٍ وقتله زوجها ليتزوجها، مع بيان موقف علماء الشيعة منها دون القول بأنها صدرت تقية؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

ليس كلُّ ما صحّ سنَده يكون متْنه صحيحًا، ولا يُقبل خبر الواحد الذي ينافي حكْمَ العقل وحكم القرآن الثابتينِ، فالرواية الحجّة عند الشيعة الإمامية يُشترَط فيها أنْ تكون صحيحة السند، وأنْ لا تخالفَ القرآنَ الكريم ولا العقل القطعيَّ ولا الحقائق العلمية الثابتة، وأنْ لا تخالف المسلَّمات في الشريعة ولا ثوابت المذهب، وأنْ لا تكون صادرةً عن طريق التقية، وأن لا تكونَ معارِضة لروايةٍ أخرى من الروايات الصحيحة عندنا، وإذا كان هناك تعارُضٌ بينها وبين روايةٍ أخرى فيُنظَر فيه هل هو تعارُضٌ من النوع المستقرِّ أو

غير المستقرِّ؟ وإذا كان من النوع غيرِ المستقر فهل يمكن الجمعُ بينهما جمعًا عرفيًّا أو لا؟ وإذا كان من المستقر فهل توجد له مرجحات في المقام أو لا؟

ثُمَّ إنه لا يحقُّ لمن يَحتجُّ على الشيعة بمرويّاتهم أنْ يَشترط عليهم عدمَ الحكم على تلك الروايات وتحديد ما إذا كانت صادرةً عن طريق التقية أم لا؛ لأن ذلك أمرٌ مستنكَرٌ في باب التحاور والمناظرة، هذا من جانب.

ومن جانبٍ آخر، فإن كتاب التفسير الذي وردتْ فيه تلك القصة المسيئة لمقام النبوَّة، إنما هو منسوبٌ إلى القمي نتيجةً لعملية تلفيقٍ جَمعتْ بين إملاءاته مع تفسير أبي الجارود وروايات أخرى أضافها أبو الفضل عباس بن محمد العلوي، فقد قال العلامة الشيخ "محمد هادي معرفة"، في كتابه "صيانة القرآن من التحريف": «تقدّم أنّ هذا التفسير منسوبٌ إليه من غير أنْ يكون من صنْعه، وإنما هو تلفيقٌ من إملاءاته على تلميذه أبي الفضل عباس بن محمد العلوي، وقسط وافر من تفسير أبي الجارود، ضمّه إليها أبو الفضل، وأكمله بروايات من عنده، وكما وضع له مقدّمة، وأورد فيها مختصرًا من رواياتٍ منسوبةٍ إلى أمير المؤمنين عليه السلام في صنوفِ آي القرآن»، وقد يُستدلّ على ذلك بأدلةٍ، أهمّها:

أ - أنَّ إسناد ما ورد فيه ساقطٌ عن الحُجِّية، وذلك لوجود المجاهيل فيه، كأبي الفضل عباس بن محمد العلوي، وغيره.

ب - وجود بعض العبارات في الكتاب تدلّل على نسبته إليه، كقوله: "رجع إلى تفسير علي بن إبراهيم"، "رجع إلى رواية عليّ بن إبراهيم"، "رجع إلى حديث علي بن إبراهيم"، وغيرها.

وعليه، فإنّ النتيجة أنّ التفسير الموجود هو خليطٌ من تفسير القمّي وغيره، ولا يمكن التمييز في ذلك»[1].

أما القصة التي تَذكر أنَّ النبيَّ داود عليه السلام كان يهوى امرأةً متزوجةً، فقَتل زوجَها ليتزوَّجها، فقد روتْها المصادرُ السُّنية قبل أنْ يرويَها التفسير المنسوب إلى القمي، فقد روى ابن أبي شيبة في "المصنف"، عن ابن عباس «أن داود حدَّث نفسه إن ابتُلِيَ أنْ يعتصم، فقيل له: إنك ستُبتلى، وتعلم اليوم الذي تُبتلى فيه، فخذْ حذرك، فقيل له: هذا اليوم الذي تُبتلى فيه، فأخذ الزبورَ، فوضعَه في حِجره، وأغلق بابَ المحراب، وأقعدَ منصفًا على الباب، وقال: لا تأذنْ لأحدٍ عليَّ اليوم، فبينما هو يقرأ الزبور إذ جاء طائرٌ مذهَّبٌ كأحسن ما يكون الطير، فيه من كل لونٍ، فجعل يدرُج بين يديه، فدنا منه، فأمكن أنْ يأخذه، فتناوله بيده ليأخذه، فاستوفزه من خلفه، فأطبق الزبورَ، وقام إليه ليأخذَه، فطار، فوقع على كوَّة المحراب، فدنا منه أيضًا ليأخذه، فوقع على خُصٍّ، فأشرف عليه لينظر أين وقع، فإذا هو بالمرأة عند بِركتها تغتسل من المحيض، فلما رأتْ ظله حرَّكت رأسها، فغطَّتْ جسدها بشعرها، فقال داود للمنصف: اذهب فقلْ لفلانة تجيء، فأتاها فقال لها: إنَّ نبي اللَّه

(١) صيانة القرآن من التّحريف، للشيخ محمد هادي معرفة، ص١٨٧-١٨٨.

يدعوكِ، فقالتْ: ما لي ولنبيِّ اللَّهْ؟ إن كانت له حاجةٌ فليأتني، أما أنا فلا آتيه، فأتاه المنصفَ، فأخبره بقولها، فأتاها، وأغلقتِ البابَ دونه، فقالت: ما لك يا داود؟ أما تعلم أنه مَن فعل هذا رجمتموها، ووعظتْه، فرجع، وكان زوجُها غازيًا في سبيل اللَّه، فكتب داود عليه السلام إلى أمير المغزى: انظر "أوريا" فاجعله في حمَلة التابوت، وكان حملة التابوت إما أن يفتح عليهم وإما أن يُقتلوا، فقدَّمه في حمَلة التابوت، فقُتل، فلما انقضت عدَّتها خطبها»[(١)].

وروى نحوه الطبري في تفسيره[(٢)]، وراواه -أيضًا- ابن الأعرابي في معجمه[(٣)]. ونحوهم رواه البغوي في تفسيره[(٤)].

وجاء في "البدء والتاريخ": «واختلفوا في سبب خطيئته، فالمعروف عند أصحاب الأخبار وأهل الكتاب ورواية الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أشرَف، فرأى امرأةً، فوقعت في قلبه، فبعث زوجَها في مَن بعث في الحرب حتى استُشهد، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها، فولدتْ له، واسم المرأة بتشبع، واسم زوجها أوريا»[(٥)].

وكثيرون غيرهم من علماء أهل السُّنة ممن ذَكروا هذه القصة المشينة أو زادوا عليها، ففي "أحكام القرآن" للجصاص، رغم أنه

(١) مصنف ابن أبي شيبة، ج١٧، ص٥٢٧، تـ. الشثري.
(٢) تفسير الطبري، ج٢١، ص١٨٥، ط. دار التربية والتراث.
(٣) معجم ابن الأعرابي، ج١، ص٧٨.
(٤) تفسير البغوي - طيبة ٧/ ٧٨.
(٥) البدء والتاريخ، ج٣، ص١٠١.

أنكر تلك القصة، لكنه ذَكر ما لا يقل إساءةً عن تلك القصة، حيث قال: «إن أوريا بن حنان لم تكن له امرأة، وقد خطب امرأة، فخطبها داود مع علمه بأن أوريا خطبها، وتزوجها. وكان فيه شيئان مما سبيل الأنبياء التنزُّه عنه: أحدهما: خطبته على خطبة غيره، والثاني: إظهار الحرص على التزويج مع كثرة مَن عنده من النساء، ولم يكن عنده أنَّ ذلك معصية، فعاتبه الله تعالى عليها...»[١].

وأكد العلامة الطباطبائي في "الميزان"، أنَّ القصة مأخوذة من التوراة[٢].

وفي "عيون أخبار الرضا" في باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل والمقالات، قال الإمام الرضا عليه السلام لابن جهم: «وأما داود فما يقول مَن قِبلكم فيه؟ قال: يقولون: إن داود كان يصلي في محرابه إذ تصوَّر له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور، فقطع داود صلاته، وقام يأخذ الطير إلى الدار، فخرج في إثره، فطار الطير إلى السطح، فصعد في طلبه، فسقط الطير في دار أُوريا بن حيان. فاطلع داود في إثر الطير، فإذا بامرأة أُوريا تغتسل، فلما نظر إليها هواها، وكان قد أخرج أُوريا في بعض غزواته، فكتب إلى صاحبه أن قدِّمْ أُوريا أمام التابوت، فقُدِّم، فظفر أُوريا بالمشركين، فصعب ذلك على داود، فكتب إليه ثانية أنْ قدِّمه أمام التابوت، فقدِّم، فقتل أُوريا، وتزوج داود بامرأته.

(١) أحكام القرآن، للجصاص، ج٣، ص٤٩٩، ط. العلمية.
(٢) تفسير الميزان، للطباطبائي، ج١٧، ص٢٠٠.

قال: فضرب الرضا عليه السلام يده على جبهته، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد نسبتم نبيًّا من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتى خرج في إثر الطير، ثم بالفاحشة، ثم بالقتل.

فقال: يا ابن رسول الله ما كانت خطيئته؟ فقال: ويحك إن داود عليه السلام إنما ظن أنه ما خلق الله خلقًا هو أعلم منه، فبعث الله عز وجل إليه الملكين، فتسوَّرا المحراب، فقال: خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق، ولا تشطط، واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال أكفلنيها، وعزَّني في الخطاب، فعجل داود على المدَّعى عليه، فقال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، ولم يسأل المدَّعي البينة على ذلك، ولم يقبل على المدعي عليه، فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه، أ لا تسمع الله عز وجل يقول: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية.

فقال: يا ابن رسول الله فما قصته مع أُوريا؟ قال الرضا عليه السلام: إن المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أو قُتل لا تتزوج بعده أبدًا، فأول من أباح الله عز وجل له أن يتزوج بامرأة قُتل بعلها داود عليه السلام، فتزوج بامرأة أُوريا لما قتل، وانقضت عدتها، فذلك الذي شق على الناس من قتل أُوريا»[1].

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، للشيخ الصدوق، ج١، ص١٧٢.

وفي "أمالي الصدوق" بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لعلقمة: «إن رضا الناس لا يملك، وألسنتهم لا تُضبط، أ لم ينسبوا داود عليه السلام إلى أنه تبع الطير حتى نظر إلى امرأة أُوريا، فهواها، وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قُتل ثم تزوج بها الحديث... وأما ما تضمَّنته غالب الروايات من قصة أوريا وامرأته فهو مما يجلُّ عنه الأنبياء، ويتنزَّه عنه ساحتهم»[١].

قال المرتضى رحمه الله في "نفائس التأويل": «فأمّا من زعم أنّه عرَّض أوريا للقتل، وقدّمه أمام التابوت عمدًا حتّى يُقتل، فقوله أوضح فسادًا من أن يُتشاغل بردّه. وقد رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: لا أوتى برجلٍ يزعم أنّ داود عليه السلام تزوّج بامرأة أوريا إلّا جلّدته حدّين، حدًّا للنبوّة وحدًّا للإسلام»[٢].

وقال الشيخ الطوسي رحمه الله في تفسيره: «فأما ما يقول بعض الجهّال من القُصّاص أن داود عشق امرأة أوريا، وأنه أمره بأن يخرج إلى الغزو، وأن يتقدَّم أمام التابوت، وكان من يتقدم التابوت مِن شرْطه ألا يرجع إلى أن يغلب أو يقتل، فخبرٌ باطل موضوع، وهو مع ذلك خبر واحد لا أصل له، ولا يجوز أن تُقبل أخبار الآحاد في ما يتضمَّن في الأنبياء ما لا يجوز على أدون الناس، فإنَّ الله نزَّههم عن هذه المنزلة، وأعلى قدرهم عنها»[٣].

---

(١) الأمالي، للشيخ الصدوق، ص١٦٤.
(٢) نفائس التأويل، للشريف المرتضى، ج٣، ص٢٦٤.
(٣) التبيان في تفسير القرآن، للشيخ الطوسي، ج٨، ص٥٥٤.

ويتلخَّص مما تقدم أنَّ القصة المتداولة حول النبي داود عليه السلام وأوريا، والتي تزعم أن النبي داود قَتل أوريا زوج المرأة التي أراد الزواج بها، هي قصة مكذوبةٌ لا أساس لها من الصحة. وقد أكد علماء الشيعة الإمامية أنَّ أصل هذه القصة يعود إلى التوراة، وأن التفسير المنسوب إلى القميِّ والذي وردت فيه هذه الرواية هو في الحقيقة تلفيقٌ لروايات مختلفة ومختلَقة. ولا تقتصر رواية هذه القصة على التفسير المذكور، بل وردت أيضًا في مصادر سنية عديدة.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

السؤال:

كيف يُفهَم قوله تعالى: ﴿تِلكَ أُمّةٌ قد خَلت لها ما كَسبَت ولكم ما كَسبتُم ولا تُسألونَ عما كانوا يعملون﴾؟ وهل يصحّ الاستدلال بها على وجوب الإمساك عمّا جرى بين الصحابة؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

استدلَّ علماء أهل السُّنة بقوله تعالى: ﴿تِلكَ أُمّةٌ قد خَلت لها ما كَسبَت ولكُم ما كَسبتُم ولا تُسألونَ عَما كانوا يَعمَلون﴾[1]، على الإمساك عما جرى بين الصحابة من حروبٍ وفِتنٍ، وهو في الواقع استدلال فاسدٌ من وجوه:

أنّ الاستدلال بظاهر الآية على أنّ الأمم الخالية لا ينبغي السؤال عن أخبارهم وقصصهم؛ لأن لهم ما كسبوا ولنا ما كسبنا، استدلالٌ خاطئ قطعًا، ولا يفيده معنى الآية من قريبٍ ولا من

(١) البقرة:١٣٤.

بعيد، وأحسنُ ردٍّ على هذا الظن هو ورود أخبار الأمم السابقة في القرآن نفسِه!، بدايةً من آدم عليه السلام إلى نوح وقومه إلى إبراهيم وقومه، وكذلك أيوب وداود وسليمان والأسباط ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام وغيرهم ممن قصّ الله علينا قصصهم في القرآن الكريم، فيجب على من كان يرى ضرورة الإمساك عما جرى بين الصحابة أن يراجع فهمَه؛ لأنّ تفسير القرآن الكريم بهذه العجَلة في الاستدلال وبلا منهج ولا جمع بين الآيات هو فعلٌ مخالف للشرع.

علاوةً على ذلك، فإن قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، لا تدلُّ على شيءٍ مما ذهبوا إليه، ودونك نماذج من أقوال المفسرين في تفسير الآية:

قال الطبري في تفسيره: «القول في قوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يعني تعالى ذكره بقوله ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وولدهم، يقول لليهود والنصارى: يا معشر اليهود والنصارى، دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهلُه، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية، فتضيفونها إليهم، فانهم أمّة -ويعني بالأمة في هذا الموضع الجماعة والقرن من الناس- "قد خلت" مضت لسبيلها، وإنما قيل للذي قد مات، فذهب قد خلا لتخلّيه

من الدنيا وانفراده بما كان من الأنس بأهله وقربائه في دنياه...».

إلى أن قال: «... ذكره لليهود والنصارى أن لمن نحلتموهم بضلالكم وكفركم الذي أنتم عليه من أنبيائي ورسلي ما كسبت والهاء والألف في قوله "لها" عائدة إن شئت على "تلك" وان شئت على - "الأمة" ويعني بقوله "لها ما كسبت" أي ما عملت من خيرٍ، ولكم يا معشر اليهود والنصارى مثل ذلك ما عملتم، ولا تؤاخَذون أنتم أيها الناحلون ما نحلتموهم من الملل، فتسألوا عما كان إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وولدهم يعملون، فيكسبون من خير وشر؛ لأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، فدعوا انتحالهم وانتحال ملَلهم، فإن الدعاوى غير مغنِيتكم. وإنما يغني عنكم عنده ما سلف لكم من صالح أعمالكم، إن كنتُم عملتموها، وقدمتموها...»[1].

وقال ابن كثير في تفسيره: «وقوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي أنّ السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم ولكم أعمالكم، ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقال أبو العالية والربيع وقتادة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط؛ ولهذا جاء في الأثر «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه». وقوله تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ

(١) تفسير الطبري، ج٣، ص١٠٠ - ١٠١، ط. دار التربية والتراث.

خَلَتْ﴾ أي قد مضت ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتّباع رسله الذين بُعثوا مبشِّرين ومنذرين، فإنه مَن كفَر بنبيٍّ واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين رسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجنّ من المكلَّفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين»[1].

ولم نجد تفسيرًا معتبرًا من التفاسير المشهورة، يخالف هذه التقريرات التي ساقها كلٌّ من الطبري وابن كثير، ولم نجد تفسيرًا من التفاسير يستدلّ بهذه الآية على وجوب الإمساك المزعوم.

وخلاصة التفسير لهذه الآية التي يستدلّون بها على الإمساك المزعوم، أنها لا تحمل دلالة صريحة على ما يظنون، ويزعمون، والدليل على عدم دلالتها على ما ذهبوا إليه من وجوه كثيرةٍ، أبرزها ثلاثة:

الوجه الأول: أن هذه الآية نزلت في اليهود منكِرة عليهم ادّعاءهم أن إبراهيم كان يهوديًّا، فكانوا يفتخرون بأن إبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام كانوا يهودًا، مثلما نحن اليوم نفتخر بأن منّا مَن فتح المشرق والمغرب، فنتغنّى بالتفاخر بالسلَف الصالح،

(١) تفسير ابن كثير، ج١، ص٤٤٧، تـ. السلامة.

وكأننا مسؤولون عن أعمالهم لا عن أعمالنا ! فنحن نعمل عمل اليهود نفسه الذين وبّخهم الله عز وجل على تفاخرهم بأنبيائهم ونسيانهم صالح الأعمال!

إذن، فالآية لها سببٌ خاصٌّ يحدِّد الإطلاق الظاهر من الآية.

الوجه الثاني: أننا مأمورون بالتفكُّر والتحدُّث عن الأمم السابقة؛ لأن القرآن الكريم مليء بالآيات والسور عن الأمم السابقة، وأن هذه الأحداث التي حدثت في عهد الصحابة كفتنة عثمان وما جرى بعدها جاءت فيها أحاديث صريحةٌ، فلا يجوز أن نضرب حديث عمار ولا حديث الخوارج ولا حديث الحوأب ولا حديث الزبير عن طريق هذه الآية مع سوء فهمنا لها! وكذلك لا يجوز أنْ نضرب غيرَها من الأحاديث الصحيحة في شأن ما جرى بين الصحابة بالاستدلال بهذه الآية.

الوجه الثالث: وقد يقول البعض: إننا ينبغي أنْ نتكلم عن محاسن الماضين، ونترك الكلام في أخطائهم! وهذا يخالف القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة؛ إذ ورد في القرآن بيان خطأ بعض الصحابة، سواء تلك الأخطاء الجماعية كتركهم النبي ﷺ يخطب قائمًا وخروجهم لأجل التجارة، وما حصل من كثير منهم يوم أُحُد عند مخالفتهم لأوامر النبي ﷺ بالبقاء على جبل الرماة، وقد نزل القرآن الكريم أيضًا بتخطئة الصحابة يوم حنين وتفاخرهم بكثرتهم، وأيضًا نزل القرآن الكريم بتخطئة أفرادٍ من

الصحابة كما حصل لحاطب بن أبي بلتعة، ونزل القرآن الكريم بالحكم بالفسق على "الوليد بن عقبة" وهو صحابي -حسب تعريفهم- كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1]، ونحو ذلك من القصص.

فهل نترك هذه العِبَر والدروس والأحداث المذكورة في القرآن الكريم بلا استفادة ولا بحث ولا دراسة من أجل تفسير خاطئ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾؟!

هل الاستفادة من كتاب الله بعِبَره ودروسه وفوائده تقتصر على القرن الأول فقط؟! أو أن الواجب علينا أن نستفيد من كلِّ ما ذكره القرآن الكريم، سواء ما ذكره عن أحداث أو أشخاص أو أخطاء أو محاسن ...إلخ؟! لا ريب عند المسلم العاقل أنّ هذا الأخير هو الحقّ والصواب.

أما السنة النبوية الصحيحة فمخالفتها للاستدلال الخاطئ بهذه الآية واضحٌ في أدلة كثيرة جدًّا، منها حديث عمار «ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار»[2]، والحديث ظاهر الدلالة بأنه كلام فيما شجر بين الصحابة، وأنه يخالف ما يذهب إليه بعضهم من وجوب الإمساك المطلق الذي لا يدلّ عليه دليل صحيح.

(١) الحجرات:٦.
(٢) صحيح البخاري، ج١، ص١٧٢.

ومنها قول النبي ﷺ: «تمرُق مارقةٌ على حين فرقة من المسلمين، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»[١] وهذا الحديث فيه حُكم واضحٌ من ﷺ بأن عليًّا عليه السلام على الحق؛ لأنه هو الذي قاتل الخوارج يوم النهروان، ووجد فيهم العلامة التي ذكرها ﷺ. وقد شهد أبو سعيد الخدري بسماعه حديث "تمرق مارقة على حين فرقة"، قال: «أشهد سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم، وأشهد أن عليًّا قتلهم، وأنا معه»[٢].

إذن، النبيّ ﷺ، لم يمسك ذلك الإمساك المزعوم على إطلاقه[٣].

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

(١) صحيح مسلم، ج٢، ص٧٤٥، تـ. عبد الباقي.
(٢) صحيح البخاري، ج٦، ص٢٥٤١، تـ. البغا.
(٣) وانظر للاستزادة حول هذه المسألة، كتاب "حسن الإجابة في عقيدة الإمساك عما شجر بين الصحابة"، لحسن بن فرحان المالكي، ص٨-١٢..

السؤال:

كيف يكون اللهُ خالق كل اللغات، ولا يستطيع ترجمة القرآن إلى أيّ لغة؟ إذن القرآن فقط للعرب!!

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ هذا الاستشكال مبنيٌّ على الغفلة عن حكمة الله تعالى في اختيار اللغة العربيّة، وما في ذلك مِن جعْلها لسانَ الحفظ الإلهيّ الذي تُصان به الحُجّة، وتُبلَّغ به الرسالة.

فالله جلّ شأنه لم يجعلِ العربيّة تمييزًا لجنسٍ دون آخر، ولا تشريفًا لقومٍ دون سائر الأقوام، بل اختارها وعاءً لمعاني الوحي؛ لأنّها أوسعُ الألسِنة بيانًا، وأقدرُها على أداء دقائق المعاني الإلهيّة بأوجز لفظٍ وأبلغ تركيبٍ؛ إذ هي لسانٌ بلغتْ فيه الكلمةُ مبلغَ الصورة الحيّة والمعنى الناطق، فإذا وُضِعت في موضعها أنطقتِ الفكر، وأحكمتِ الحُجّة، وأعجزتِ الفصحاء عن معارضتها؛ ولهذا

كان نـزولُ القـرآن بلسـانٍ عربـيٍّ مبيـنٍ مـن مقتضـى الحكمـة، لا مـن مقتضى الخصوصيّـة القوميّـة؛ إذ لـم يكـن المقصـودُ أنْ يُوجَّـه الخطـابُ إلـى العـرب وحدَهـم، بـل أنْ يُجعـل اللسـانُ العربـيّ القـادرُ علـى حمـل الوحـي وحفظـه هـو الوعـاءَ الأميـنَ لحمايتـه مـن التحريـف، فبـه تحقّـق قولُـه تعالـى: ﴿إِنَّـا نَحْـنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْـرَ وَإِنَّـا لَـهُ لَحَافِظُـونَ﴾[1]، ولـو نـزل القـرآنُ بلغـاتٍ متعـدّدةٍ لوقـع الاختـلافُ فـي الألفـاظ، وتفاوتـتِ الـدلالات، ولارتفـع وجـهُ الإعجـاز القائـمِ علـى وحـدة النظـم، فسـقط بذلـك ضمـانُ الحفـظ الـذي أراده اللـه سـبحانه.

وأمّـا مَـن توهّـم أنّ عـدمَ ترجمـة القـرآن قصـورٌ فـي القـدرة، فقـد جهِـل حقيقـةَ الترجمـة ومحـلَّ الإعجـاز؛ فـإنّ الترجمـة ليسـتْ نـقلًا للحقيقـة اللفظيّـة، بـل هـي تقريـبٌ للمعنـى العـامّ إلـى الأذهـان، والقـرآنُ الكريـم ليـس كتـابَ معـانٍ مجرّدة، بـل هـو كلامٌ إلهـيٌّ ذو نظـامٍ مخصـوصٍ وإيقـاعٍ معجـزٍ وتركيـبٍ لا يقـوم لـه نظيـرٌ، فالإعجـاز فيـه قائـمٌ فـي النظـم والبيـان والتركيـب، لا فـي المفهـوم الذهنـيّ وحـده.. ولذلـك فـإنّ مـا يُنقَـل إلـى اللغـات الأخـرى إنّمـا هـو تفسـيرٌ للمعنـى لا ترجمـةٌ للنـصّ؛ لأنّ الترجمـة لا تُبقـي للنظـم أثـرًا، ولا للأسـلوب رونقًـا، ولا للإعجـاز مقامًـا.

ومَـن طلـب ترجمـةً تحفـظ الإعجـازَ فقـد طلـب محـالًا؛ لأنّ الإعجـاز فـي النظـم نفسـه، وهـو سـرٌّ مـودَعٌ فـي بنـاء الجملـة كمـا تُـودَع القـوّةُ فـي الـدواء المركّـب، فـإذا غُيِّـر تركيبُـه بطلـتْ فاعليّتُـه وإنْ

(١) الحجر:٩.

بقي اسمُه.

وعليه، فإنّ عربيّة اللسان لا تقيِّد عالميّة الدعوة؛ لأنّ الخطاب وإنْ ورد بلسانٍ واحدٍ، فقد شمل الناسَ أجمعين بمضمونه، فالمعاني الكلّيّة التي يتضمّنها القرآن تُبلَّغ إلى الأمم كافّةً بألسِنتها، أمّا النصّ نفسُه فيُحفَظ بلفظه العربيّ لتبقى الحُجّةُ قائمةً على وجهها الذي نزلت به؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]، فعمّم الخطابَ لجميع البشر مع بقاء النصّ عربيًّا؛ لأنّ وحدة اللسان تحفظ وحدة المعجزة، وعمومَ المعنى يحقّق شمولَ الدعوة.

ولئن قيل: ما الحكمةُ في إبقاء النصِّ العربيّ مع أنّ سائر الأمم تختلف ألسِنتُها؟

قلنا: إنّ الحفظ لا يتحقّق إلا بوحدة الصيغة، وتركيبُ الدواء لا يُحفَظ إلا بإبقاء نِسب عناصره على حالها، فلو غُيِّرت ألفاظُ القرآن كما تُغيَّر مقاديرُ الدواء فسد الأثرُ، وذهب الإعجاز وإن بقي المعنى العامّ الذي هو الهداية.

فالمعنى يمكن بيانُه بكلّ لسان، وأمّا الإعجازُ فلا يُدرَك إلا بلفظٍ عربيٍّ مخصوصٍ أودع اللهُ سبحانه فيه أسرارَ البيان.

والنتيجة أنّ القرآن الكريم عربيّ اللسان، لا لأنّ الهداية مخصوصةٌ بالعرب، بل لأنّ الحُجّة محفوظةٌ بلسانٍ واحدٍ لا يتطرّق

(١) الأعراف:١٥٨.

إليه التبديل، فهو كتابٌ للعالمين جميعًا، ووعاؤه العربيّ ضمانُ حفظِه وبقائه على النحو الذي أراده الله عزّ وجل.

فالحكمةُ إذن ليستْ في تضييق الخطاب على قومٍ، بل في إبقاء المعجزة على هيأتها الأولى لتظلّ شاهدًا على صدق الرسالة إلى يوم الدين، كما قال جلّ شأنه: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

(١) القلم:٥٢.

السؤال:

في القرآن نقرأ الآية ٤٧ من سورة الحجِّ أنّ اليوم عند الله ألفُ سنةٍ، وفي الآية ٤ من سورة المعارج أنه خمسون ألفَ سنةٍ! فهل اليوم عند الله ألف سنةٍ أو خمسين ألف سنة؟!

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

قد يظنّ بعضٌ أنّ بين قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[1]، وبين قوله في سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2]، تعارضًا أو تناقضًا؛ لأنّ الأُولى تَذكر ألف سنةٍ، والثانية تذكر خمسين ألفًا، ولكنّ التدبُّر في السياق يُبيِّن أنّ كلا الآيتين في مقامٍ مختلف، ولا تناقضَ بينهما.

ففي آية سورة الحجِّ الخطابُ موجّهٌ إلى مَن يستعجلون

(١) الحج:٤٧.
(٢) المعارج:٤.

العذاب، ويستثقلون تأخُّره، فجاء البيان بأنّ ما يراه الناس طويلًا جدًّا (كألفِ سنةٍ) لا يُعدّ طويلًا عند الله عزّ وجل، فالآية هنا تقرِّب المعنى إلى أذهان البشر، فاللهُ سبحانه منزَّهٌ عن أنْ يثقل عليه الزمن، فهو المحيطُ بالزمان، لا يجري عليه زمانٌ، ولا يتأثّر بمقاديره[١].

فالمعنى: أنّ وعْد الله آتٍ لا محالة وإنْ طال في أعينكم، فالألفُ سنةٍ عندكم كاليوم الواحد عند الله سبحانه.

وأمّا آية سورة المعارج فهي في مقام بيان هول يوم القيامة، وطول الموقف على الكافرين؛ إذ تُصوَّر شدّة ذلك اليوم بأنّه كمقدار خمسين ألفَ سنةٍ مما يحسبه الناس.. والقرآن كثيرًا ما يعبِّر عن الأمور الغيبيّة بما يقرِّبها إلى الأذهان، فجاء هنا بذكر العدد الكبير ليصوّر عِظَمَ الشدّة وطول الموقف، لا ليجعل يوم القيامة محسوبًا بدقّةٍ حسابيّةٍ زمنية؛ ولذلك قال في موضعٍ آخر: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[٢].

والنتيجة أنّ الألف سنةٍ في آية الحج جاءت لطمأنة المؤمنين بأنّ تأخُّر العذاب أو النصر ليس يطول عند الله سبحانه، بل هو قريبٌ نافذٌ في وقته.

والخمسون ألفَ سنةٍ في آية المعارج جاءت لترهيب الكافرين

---

(١) يُنظر: تفسير البيان، للشيخ الطوسي، ج٧، ص٢٢٦-٢٢٧.
(٢) المدثر:٩ - ١٠.

وبيان عِظَم يوم القيامة وثقله عليهم.

والله سبحانه منزَّهٌ عن أنْ يُقاس بالزمان، فهو خالقُ الزمان والمكان، والآيتان إنّما تَذكران مقادير زمنيّة لتقريب المعنى إلى عقول البشر، فتارةً لتخفيف وطأة طول الانتظار، وأخرى لتهويل موقف الحساب.. فلا تناقضَ، بل لكلٍّ منهما مجالٌ ومقام.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

السؤال:

ما حكم من يلتزم بالصلاة والصيام وسائر العبادات، لكنه يُنكر بعض ما ورد في القرآن من القصص، كقصة قتل الغلام التي وردت في سورة الكهف؟.

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

الإيمانُ بكتابِ الله هو الإذعانُ الجازمُ بجميعِ ما تضمَّنه من عقائدَ وقصصٍ وأخبارٍ وأحكامٍ؛ إذ كلُّه حقٌّ من عندِ اللهِ سبحانه، لا يتجزّأ فيه التسليم، ولا يُتصوَّر فيه الانتقاء، قال جلّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1]. فمن قبِل بعضًا، وردَّ بعضًا فقد خالف أصلَ الإيمانِ الذي يقومُ على الخضوعِ الكامل للوحي والرضا بحكمِ الله في الغيبِ والشهادة.

وقد عاتبَ اللهُ تعالى بني إسرائيل على هذا المسلك، فقال:

(١) الأحزاب:٣٦.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[١]. ومعناها أنّ الازدواجيةَ في الالتزامِ بأحكامِ اللهِ تعالى من عواملِ السقوط؛ إذ تدفعُ الأفرادَ إلى التحرُّكِ حولَ محورِ مصالحِهم الآنيّةِ الضيّقة، فيلتزمون بالقوانينِ التي تحفظُ منافعَهم الشخصيّة، ويتركون القوانينَ النافعةَ للمجتمع[٢]. فدلّت على أنَّ الإيمانَ الانتقائيَّ لا يُعدّ إيمانًا شرعًا، بل هو لونٌ من الكفرِ العمليّ المناقضِ لحقيقةِ التسليم.

وليتأمّلِ المؤمنُ في شؤونِ نفسه، فإنه يمارس في حياتِه أمورًا كثيرةً، لا يحيطُ بعِلّتها، ولا يدركُ وجهَ الحكمةِ فيها، ومع ذلك يُسلِّم بها ثقةً بأهلِ الخبرة، كمن يتناولُ الدواءَ الموصوفَ له دون أنْ يعلمَ تركيبَ عناصرِه ولا كيفيةَ تفاعلِه في جسده، أو كمن يركبُ الطائرةَ، لا يعرفُ كيف تُحلِّق، لكنه يطمئنّ إلى علمِ صانعِها والطيارِ الذي يقودُها.. فإذا كان الإنسانُ العاجزُ عن إدراكِ دقائقِ الأشياءِ في عالمِ المادّة يُسلِّم فيها لأهلِ المعرفةِ المحدودةِ، أ فلا يكونُ أَولى به أنْ يُسلِّم للعليمِ الحكيمِ الذي أحاطَ بكلّ شيءٍ علمًا، وأخبرَنا في كتابِه بما يفوقُ مداركَنا؟!

وما وردَ في قصّةِ العبدِ الصالحِ في سورةِ الكهف أنّ اللهَ آتاه رحمةً خاصّةً، وعلّمه علمًا لدُنّيًّا، فقال سبحانه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[٣]. وعلى

(١) البقرة: ٨٥.
(٢) يُنظر: تفسيرُ الأمثل، ج١، ص٢٨٨.
(٣) الكهف:٦٥.

مقتضى هذا العلمِ جرى فعلُ قتلِ الغلام، لا عن هوىً ولا جهل، بل عن علم إلهيٍّ بعواقبِ الأمور، إذ قال عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۞ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾[١]. فالقصةُ مظهرٌ من مظاهرِ العلمِ الإلهيِّ الذي لا يحيطُ به عقلُ البشرِ المحدود، وهي بيانٌ لأنّ سننَ التدبيرِ الإلهيّ، وما يجري على أيدي أوليائِه بإذنه، جارٍ على مقتضى الحكمةِ وإنْ خفيَ وجهُه عنِ الأفهام.

ومن صامَ، وصلّى، وأتى بجميعِ الأركان، ثم ردَّ بعضَ ما أخبرَ اللهُ عزّ وجل به لعدمِ قبوله في ذهنِه أو لقصورِ تصوُّره، فقد عرَّض أصلَ إيمانِه للنقض؛ لأنّ العملَ لا يُعتدّ به إلّا مع التسليم، وإلّا كان صورةً بلا روح، والمؤمنُ الحقّ إذا ضاق فهمُه عن بعضِ الآياتِ اتّهم فهمَه، ولم يتّهم كتابَ ربّه، وسأل اللهَ الهدايةَ إلى وجهِ الحقّ، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[٢].

والعقلُ الذي تمتدحه الشريعةُ هو الذي يقودُ صاحبَه إلى الخضوعِ لحكمِ اللهِ سبحانه، لا الذي يُقابلُ النصوصَ برأيٍ قاصرٍ، وقد ورد في الحديثِ عن الإمامِ الصادق عليه السلام: «العقلُ ما عُبِدَ به الرحمنُ، واكتُسِبَ به الجِنان»[٣]. فملاكُ النجاةِ أنْ يُسلِّمَ العبدُ

(١) الكهف: ٨٠-٨١.
(٢) العنكبوت: ٤٩.
(٣) الكافي، ج١، ص١١.

لكتابِ الله تبارك وتعالى، ويفوِّضَ علمَ ما خفيَ عليه إلى علّام الغيوبِ، ويطلبَ الفهمَ على أبوابِ الوحي، فإنَّ مَن سلّم هَداهُ اللهُ سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[1].

والخلاصةُ أنَّ قصّةَ الخضرِ آيةٌ محكمةٌ من كتابِ الله، شاهدةٌ بالحكمةِ الإلهيّة، يَهتدي لوجهِها من سلّم لحُكمه تبارك وتعالى، وأمّا من ردَّها استبعادًا برأيٍ قاصرٍ فقد هدمَ ركنَ التسليم؛ فلا تُغني حركاتُ الجوارح مع فسادِ الاعتقاد؛ إذ الإيمانُ إنّما يقومُ على الانقيادِ التامّ لكتابِ اللهِ عزَّ وجلّ.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

(١) التغابن:١١.

السؤال:

هل تدلّ آية: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ على أنّ الله يأمر بالفسق؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

ليس في القرآن الكريم آيةٌ تدلّ على أنّ الله تعالى يأمر بالفسق، بل ذلك ممّا تنزّهتْ عنه ذاتهُ المقدّسة؛ لأنّ الأمر بالفسق يناقض حكمتَه وعدلَه؛ إذ لا يُعقَل أنْ يأمر الحكيمُ بما يُبطِل أصلَ التكليف أو يُسقِط استحقاقَ الثواب والعقاب. فاللهُ سبحانه لا يأمر إلّا بالعدل والإحسان، كما صرّح به قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، ولا يأمر بما يناقضهما.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا

(١) النحل: ٩٠.

﴿فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[١]، فقد توهَّم بعضُ الجُهّال أنّ ظاهرها أنّ اللهَ سبحانه أمَر بالفسق، وليس كذلك، بل المرادُ بـ (أمرنا) هنا هو الأمرُ بالطاعة والعدل على ألسِنة الأنبياء، لا الأمرُ بالفسق.

فالآيةُ في مقام بيان سُنّةٍ إلهيّةٍ جاريةٍ، وهي أنّه إذا أراد اللهُ تبارك وتعالى إهلاكَ قومٍ لتماديهم في الغيّ أرسل إليهم رُسُلَه بالأمر بالطاعة، فخالفَ المترَفون أمرَ الله سبحانه، وتمرّدوا، فاستحقّوا العذاب؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾، فجعل الفسقَ مترتّبًا على الأمر، لا مأمورًا به، ولو كان الله سبحانه أمرهم بالفسق لقال: (أمرناهم بالفسق ففسقوا)، ولم يَرِدْ ذلك في كتاب الله تعالى.

وقد قال شيخُ الطائفة الطوسيّ ﵀ في "التبيان في تفسير القرآن": «وقوله ﴿أمرنا مترَفيها﴾، المأمورُ به محذوفٌ، ولا يجب أنْ يكون المأمورُ به هو الفسقَ وإنْ وقع بعده الفسقُ، بل لا يمتنع أنْ يكون التقدير: وإذا أردنا أنْ نُهلك قريةً أمرناهم بالطاعة، ففسقوا فيها، فحقّ عليها القول، وجرى ذلك مجرى قولهم: أمرتُه، فعصى، ودعوتُه، فأبى، والمراد أمرتُه بالطاعة، ودعوتُه إلى الإجابة والقبول، فعصى»[٢].

فالآيةُ على هذا المعنى بيّنةُ الدلالةِ على أنّ الهلاكَ الإلهيّ إنّما

(١) الإسراء:١٦.
(٢) التبيان في تفسير القرآن، ج٦، ص٤٥٨.

يكـون بعـد إقامـةِ الحجّـة بالأمـر بالطاعـة، وظهـورِ الاسـتكبار والتمـرُّد مـن أهـل التـرَف، لا أنّـه جـلّ شـأنه يأمـرُ بالفسـق، حاشـاه سـبحانه عمّـا لا يليـقُ بعزّتِـه وجلالِـه.

والحمـد للـه أوّلًا وآخـرًا، وصلّـى اللـهُ، وسـلّم علـى سـيّدنا ونبيّنـا محمّـد وآلـه الطيّبيـن الطاهريـن المعصوميـن المنتجَبيـن.

السؤال:

إذا كان أكثر الناس لا يفهمون آيات القرآن فهمًا صحيحًا، فكيف يكون القرآن حجّةً عليهم؟ أ ليس ذلك دليلًا على أنّه نزل لفئةٍ خاصةٍ لا يفهمه غيرُها؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

دعوى أنّ القرآن الكريم لا يُفهَم إلّا من فئةٍ مخصوصةٍ، وأنّه مُغلقٌ على عامّة الناس، دعوًى لا تستقيم مع نصوصه ولا مع سُنّة إنزاله.

فإنّ تعثّرك في فهم بعض الآيات لا ينهض حجّةً على انسداد باب الفهم على الناس كافّة، إذ التجربةُ الشخصيّة لا تُعمَّم، كما أنّك تجدُ من الآيات ما تفهمه بوضوحٍ، ويجد غيرُك من العلم واللغة والسياق ما يفتح له ما استعصى عليك. والقرآنُ -بنصّه- دستورُ الهداية العامّة، أنزله اللهُ سبحانه للناس أجمعين، فقال:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾[١]. فلو كان فهمُه موقوفًا على فئةٍ بعينها لكان الأمرُ بالاهتداء به تكليفًا بما لا يُطاق، وحاشا الحكيمَ سبحانه أنْ يكلّف بما لا يُفهَم، ولا يُدرَك.

وعلى هذا النهج خاطب الجميع بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾[٢]، ولم يخصّ العلماء دون غيرهم؛ لأنّ أصلَ التدبُّر متيسّر، ثم تتفاوت مراتبه بتفاوت الملكات والاستعدادات.

وهذا المعنى تشهد له سيرةُ التنزيل؛ فقد نزل القرآنُ الكريمُ في بيئةٍ يغلب عليها طابعُ البساطة، لا جامعات فيها ولا معاهد، ومع ذلك تحدّاهم ربُّ العالمين بالإعجاز والبيان، وطلب منهم الإتيانَ بمثله أو بسورةٍ من مثله. ولو كان مغلقًا عليهم من حيث الفهم لكان الاعتراضُ الأوّل أنْ يقولوا: كيف نتحدّى بكتابٍ لا نفقه معانيه؟ ولم يُنقَل ذلك عنهم؛ بل شهدوا في نفوسهم بسطوة بيانه، وإنْ جحدتْه ألسِنتهم.

ومن هنا جاء التصريحُ بالتيسير: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[٣]، و﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٤]، و﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٥]. والتيسيرُ هنا أصلٌ عامٌّ، يُثبِت إمكانَ الفهم والهداية، ثم تبقى طبقاتُ المعاني ودرجاتُ

(١) البقرة:١٨٥.
(٢) النساء:٨٢.
(٣) القمر:١٧.
(٤) الدخان:٥٨.
(٥) الإسراء:٩.

التدبُّر في الآيات على قدر القابليّات والملَكات.

نعم، في القرآن محكَمٌ ومتشابه، وناسخٌ ومنسوخٌ، ومجالاتٌ تحتاج إلى مزيد بيانٍ؛ ولهذا جعل اللهُ عزّ وجلّ أهلَ البيت عليهم السلام عدلَ الكتاب وترجمانَه، يردّون المتشابه إلى المحكم، ويُقيمون القواعد في الفهم الصحيح، وقد وصلَنا من بيانهم الشيءُ الكثير. فمن رام الغوص في الأعماق استضاء بأنوارهم، ومن قصد الهدايةَ العامّة وجدها -بفضل الله- ميسّرةً لكل قارئٍ ومتدبِّرٍ.

وخلاصةُ القول أنّ القرآن الكريم كتابٌ مفتوحٌ للناس كافّة من حيث أصلُ الفهم والاهتداء، وهو حجّةٌ على الجميع، ثم تتفاوت مراتبُ الإدراك بحسب القابليّات والملَكات. ومَن أراد الكمالَ في الفهم فطريقُه الرجوعُ إلى أهل البيت عليهم السلام وقواعدهم، وبذلك يلتئم الأمرُ، ولا تعود شبهةُ الانسداد قائمةً.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمدٍ وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

السؤال:

هل يصح أن يُنسب النسيان إلى الله تعالى كما في قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

الله سبحانه لا ينسى أبدًا بمعنى الغفلة والذهول؛ لأنّ هذا نقصٌ يستحيل عليه سبحانه، وهو العالِم المحيط بكل شيءٍ. قال عزّ وجلّ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾[١]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[٢]، وقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[٣]. فكلّ ما في عالم الوجود حاضر في علمه، لا يخفى عليه شيء.

لكن قد تَرِد في القرآن آياتٌ يُنسَب فيها النسيان إلى الله

(١) طه:٥٢.
(٢) مريم:٦٤.
(٣) الطلاق:١٢.

سبحانه، كقوله عزّ وجل: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾[١]، وقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[٢]. وليس المراد النسيان الحقيقيّ، بل هو من أسلوب المشاكلة والمقابلةِ في العربيّة، حيث تُذكَر الكلمة نفسُها في الطرفين، ولكنْ بمعنيَين مختلفَين، فنسيان العبد هو تركه ذكرَ الله سبحانه والإعراضُ عن أوامره، وأمّا نسيان الله جلّ شأنه لهم فمعناه أنّه سبحانه يتركهم من رحمته وتوفيقه جزاءً وعدلًا بعد قيام الحجّة عليهم بسبب إعراضهم، لا على معنى الغفلة والذهول -تعالى الله عن ذلك- وقد جاء في تفسير الأمثل: «ومما ينبغي الالتفات إليه أنّ موضوع نسيان الله تعالى قد عطف بفاء التفريع على نسيان هؤلاء القوم، وهذا يعني أنّ نتيجة نسيان هؤلاء لأوامر الله تعالى وطغيانهم وعصيانهم هي حرمانهم من مواهب الله ورحمته وعنايته»[٣].

فالمعلّم قد يترك طالبًا أهمل النصحَ مرارًا، فيعامله معاملةَ مَن تُرِك وشأنه، لا لأنّ المعلّم نسيه، بل لأنّ الطالب أعرض عن سماع التوجيه، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾.

وهكذا يُجمَع بين نفي النسيان في قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، وهو نفي الغفلة مطلقًا، وبين نسبته في آيات الجزاء، وهو مشاكلةٌ ومقابلة يُراد بها المعاملة بالحرمان من الرحمة والتوفيق

(١) السجدة:١٤.
(٢) التوبة:٦٧.
(٣) تفسير الأمثل، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج٦، ص١١٥.

لمن استحقّ ذلك.

والخلاصة أنّ الله سبحانه منزَّهٌ عن النسيان الحقيقيّ على الإطلاق، وما ورد في القرآن الكريم من نِسبة النسيان إليه تبارك وتعالى إنّما هو على سبيل المشاكلة والمقابلة، أيْ معاملةُ العاصين بما اختاروا لأنفسهم، بحرمانهم من الرحمة والتوفيق بعد إعراضهم، لا على معنى الغفلة والذهول.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

السؤال:

هل قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ يُثبت لله تعالى صفةَ الحسرة؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ لفظَ الحسرةِ في لسان العربِ يدلّ على شدّة الندم وتلهّف الفائت، وهي -بطبيعتها- من الانفعالات التي لا تليق إلّا بالمُمكن -أي: المخلوقِ- ومن ثَمّ، فإذا أُخذ اللفظُ على ظاهرِه، ونُسب إلى اللهِ سبحانه لزمَ إثباتُ الانفعال في جانبِه تعالى، وهو ما ينافي أصلَ التنزيه؛ ولهذا كانت نسبةُ الحسرةِ إلى الله جلّ شأنه باطلةً عقلًا؛ لأنّ الحسرة إنّما تَعرض إمّا لِجهلٍ بالعاقبة أو لعجزٍ عن تدارك الفائت، وكِلا الأمرين ممتنعٌ في حقِّ مَن وسِع علمُه كلَّ شيءٍ، ونفذت قدرتُه في كلّ شيءٍ.

ومنه يتبيّن وجهُ حملِ الآية؛ فإنّ المراد بقوله تعالى: ﴿يَاحَسْرَةً

عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[١]، ليس إسنادَ الحسرة إلى الله عزّ وجل، بل هو نداءُ تفجّعٍ على حال العباد، جاء على سُننِ كلامِ العربِ في النداء؛ حيث يُنادى اسمُ الحسرة نفسُه تعظيمًا لشأن المصيبةِ وتصويرًا لفداحة الخُسران، وهذا الفهم هو الذي عليه المفسِّرون؛ إذ ذكر الشيخ الطوسي رحمه الله أنّ القائل إمّا المؤمنُ الذي جاء من أقصى المدينة، أو مَن يشهد خُسرانَهم فينادي: يا حسرةً على العباد، وأنّ المراد إنّما هو حسرتُهم على أنفسهم وعاقبتِهم، لا صفةٌ تُسند إلى الخالق جلّ شأنه، حيث قال رحمه الله: «قيل: هو قول الذي جاء من أقصى المدينة. وقيل: معناه يحتمل شيئين: أحدهما -يا حسرةً من العباد على أنفسهم. الثاني- أنهم قد حلّوا محلّ مَن يتحسَّر عليه. وقال ابن عباس: معناه يا ويلًا للعباد "ما يأتيهم من رسولٍ" أيْ ليس يأتيهم من رسولٍ من عند الله "إلّا كانوا به يستهزئون" أي يسخرون منه، ويهزؤون به، والذي حكى الله تعالى عنه مخاطبًا قومه هو ما قدَّمنا ذكره: حبيب بن مري - في أقوال المفسِّرين»[٢].

وممّا يؤكّد هذا ما ذكره فخرُ الدين الطريحي؛ إذ بيَّن أنّها إمّا حسرتُهم يوم القيامة على ما فرّطوا فيه، أو حسرةُ المتحسّرين عليهم لعِظَم ما جنَوه، وأجاز حملَ اللفظ على الاستعارة تعظيمًا لشأن المصاب لا لإثبات انفعالٍ في جانب الله سبحانه، حيث قال

---

(١) يس:٣٠

(٢) التبيان في تفسير القرآن، للشيخ الطوسي، ج٨، ص٤٥٣.

ما نصُّه: «قيل هي حسرتُهم على أنفسهم في الآخرة واستهزاؤهم بالرسل في الدنيا، ونودِيت الحسرة تنبيهًا للمخاطب على معنى "يا حسرة هذا" أو أنكِ التي حقّك أنْ تحضري فيه، أو المعنى أنهم أحقّاء أنْ يَتحسَّر عليهم المتحسِّرون، ويجوز أنْ تكون الحسرة من الله على سبيل الاستعارة في تعظيم ما جنَوه على أنفسهم وفرط إنكاره. قال الشيخ أبو علي: ورُوي عن أُبيٍّ بن كعب وابن عباس وعلي بن الحسين عليهم السلام: يا حسرةً على العباد على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم من حيث أنها موجَّهة إليهم»[1].

فالحاصل، بعد انتظام المقدّمات وتضافر النقول، اتّضح أنّ الآية في مقام تصوير خسارةِ المكذّبين وفي مقام إظهار النداء بحالهم، لا في مقام إثبات صفةِ الحسرة لله جلّ شأنه؛ ومن هنا ظهر أنّ الحسرةَ إنّما تكون من نصيبِ مَن أعرضَ، وكذّب، أمّا اللهُ سبحانه فمُنَزَّهٌ عن كلّ انفعالٍ ونقصٍ؛ إذ لا يفوته شيءٌ ليندمَ عليه، ولا يخفى عليه أمرٌ ليُراجِعَ فيه حكمَه.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

(١) مجمع البحرين، للشيخ فخر الدين الطريحي، ج٣، ص٢٦٦.

السؤال:

كيف ينهى القرآن عن الفرح في قوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، ثم يأمر به في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾؟ أ ليس في ذلك تنافٍ؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنَّ منشأَ السؤال هنا هو ما يتراءى للناظر من أنَّ القرآنَ في موضعٍ يَنهى عن الفرح، ويذمّ الفرحين، وفي موضعٍ آخر يأمر بالفرح، ويحثّ عليه؛ فيَتوهّم السائلُ وجودَ تنافٍ أو تكاذبٍ بين الآيتَين، والحقيقةُ أنْ لا تناقضَ في كلامِ الله عزّ وجلّ؛ لأنّ كلا الموردين يتناول معنًى مختلفًا للفرح، ولكلّ واحدٍ منهما سياقٌ خاصٌّ وغايةٌ مخصوصة.

فالآيةُ الواردةُ في قصةِ قارون تقول: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، والمقصودُ بهذا الفرحِ فرحُ البطَرِ والغرورِ بما

في أيدي الناسِ من زخارفِ الدُّنيا وأموالِها وزينتِها، بحيث يورثُ صاحبَه الكِبْرَ، ويُغفِله عن الآخرة؛ كما كان حالُ قارون الذي أُعطِي الكنوزَ، فاغترَّ بها، وتعاظم على قومه. فهذا الفرحُ يذمّه القرآنُ؛ لأنّه يُبعِد عن الله، ويمثّل انغماسًا في متاعٍ فانٍ يُعمي القلبَ عن الدار الباقية.

أمّا قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، فهو فرحٌ من سِنخٍ آخر؛ هو فرحُ المؤمنِ بما أنعمَ اللهُ به من نورِ الإيمان، وهدايةِ القرآن، وولايةِ أوليائه، ورحمته التي وسعت كلَّ شيءٍ. وهذا الفرحُ ممدوحٌ؛ لأنّه يُظهِرُ شكرَ النعمة، ويزيدُ في الطمأنينة، ويقرِّبُ العبدَ إلى ربّه. فالفرحُ بالله فرحٌ بالحقّ، بخلافِ الفرحِ بالدنيا؛ فإنّه فرحٌ بالباطل.

فإذا تدبَّرنا هذه المعاني زالَ التوهُّم، واتّضح أنَّ الآيتين ليستا متناقضتَين؛ بل كلُّ واحدةٍ منهما تكشفُ جانبًا من واقعِ الإنسان، فإذا فرِح بالدنيا المعزولةِ عن الله سبحانه كان ذلك مبغوضًا، وإذا فرح بفضلِ الله تبارك وتعالى كان ذلك محبوبًا.

وهكذا يعلِّمنا القرآنُ أنْ نُفرّق بين فرحٍ يُورِثُ الغفلةَ، فيُقصي عن الله جلَّ وعلا، وبين فرحٍ يُثمِرُ الشكرَ، فيقرّب إليه.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال:

هل يمكن الجمع بين رحمة الله المطلقة التي يعبّر عنها قول القرآن: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وبين ما في القرآن من آيات العذاب والخلود في النار، وصورة «الإله المعذِّب» التي ركّز عليها بعض الخطاب الديني؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

الإشكال بُني على توهّمِ أنّ رحمة الله وعذابَه ضدّان لا يجتمعان؛ بحيث إذا أَثبتنا الرحمة سقط العذاب، وإذا أثبتنا العذاب سقطتِ الرحمة، وهذا خلطٌ من أساسه؛ لأنّ رحمة الله سبحانه في القرآن ليستْ مجرّد عاطفةٍ تُسقط المسؤوليّة عن المذنبين، بل هي تدبيرٌ شامل يبدأ بالخلق والرزق، ثم الهداية والإنذار، ثم فتْح باب التوبة مرّة بعد أخرى، قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

فإذا أعرض العبد عن هذا كلّه، وهو يعلم، واستمرّ على العناد بعد قيام الحجّة، كان ما يصيبه يوم القيامة نتيجة عمله هو، لا ظلمًا من ربّه، وقد أكّد القرآنُ هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

وبذلك يتبيَّن موضعُ المغالطة عند المستشكل؛ إذ جعل الرحمة والعذاب متقابلَين تقابُل النفي والإثبات، مع أنّ العذاب في موضعه جزءٌ من تمام الرحمة وعدلها؛ لأنّه يحفظ حقّ المظلوم، ويميِّز بين المطيع والعاصي، ويجعل للتكليف معنًى.

فلو نُفي العذابُ بحجّة الرحمة لكان ذلك مساواةً بين الظالم والمظلوم، ولتعطّلت الشرائع، وسقط حقُّ الله في الأمر والنهي، وهذا باطلٌ بداهةً.. ثم إنّ العذاب ليس مطلقًا لكلِّ عاصٍ؛ فالخلودُ إنما ورد في موارد الشرك والعناد مع العلم، أمّا ما دون ذلك فداخلٌ تحت مشيئة الله ومغفرته، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

وأمّا صورة (الإله الجلّاد) التي شاعت في بعض المنابر حين غلب الترهيب، وأُهمِل الرجاء، فهي قصور في أسلوب العرض، لا في نصوص الوحي ولا في نهج أهل البيت عليهم السلام.

فإنّ منهج القرآن هو أنْ نسير إلى الله بين الخوف والرجاء معًا، قال سبحانه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، فالتخويفُ وحدَه

يورث القنوط، والترغيب وحدَه يجرّئ على المعصية؛ ولهذا افتُتحت السُّورُ بالبسملة، حتى تلك التي تذكر العذابَ والنار، إشارةً إلى أنّ الأصل رحمةٌ واسعةٌ، وأنّ الوعيد يجري تحت ظلّها حيث يستحقّه العبد بعد البيان.

والمتحصَّل من ذلك كلِّه، أنّ الله تعالى رحيمٌ عادلٌ؛ فرحمتُه هي الأصل في الخلق والرزق والهداية والتوبة، وعدلُه ظهورُ تلك الرحمةِ في موضع الاستحقاق.. فذِكرُ العذاب لا ينفي الرحمةَ، كما أنّ الرحمة لا ترفع العذابَ عمّن استحقّه بعد قيام الحجّة.

ومَن توهّم أنّ العذاب يناقض الرحمة فقد خلَط بين مقام رحمة الله في إيجاد الخلق وهدايتهم، وبين مقام الجزاء على الأعمال، والقرآن الكريم جمع بين الأمرين بوضوحٍ في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ومعه قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾. وبهذا يظهر بطلان الإشكال، وتصحّ الصورة.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمد وآله الطاهرين المعصومين.

❁❁❁

السؤال:

كيف يقول القرآن إنّ الأرض خُلقت قبل السماء، مع أنّ العلم يثبت أنّها وُجدت بعدها؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ ما يُتوهَّم من أنّ قوله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، يُثبت تقدّم خلقِ الأرض زمانًا على خلق السماء، فيكون في ذلك مخالفةٌ للحقائق العلميّة، إنّما هو كاشفٌ عن سوء فهمٍ لمعنى الخلق والاستواء في المقام، ومن الاقتصار على ظاهرٍ موهومٍ دون ردّ المتشابه إلى المحكَم.

فالقرآن الكريم لم يذكر الأرض قبل السماء في مقام بيان المراحل الزمنيّة، وإنّما ذكرها من حيث كونها محلّ عيشِ الإنسان

(١) البقرة:٢٩.

ومورد انتفاعه.

وكلمة (ثمّ) في لغة العرب لا تفيد دائمًا الترتيب الزمني (التراخي الزمني)، بل تستعمل كثيرًا لمطلق الانتقال في السياق (التراخي الرتْبي)، كما أكَّده النحويّون والمفسّرون.. فلا دلالة في الآية على سبق الأرض زمانًا.

بل نجد القرآن نفسه قد فصّل المراحل في موضعٍ آخر، فقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[1].

وهذه الآيات صريحةٌ في أنّ بناء السماء وتسويتها كان قبل دحوِ الأرض، أيْ قبل بسطها وإرساء جبالها وتفجير عيونها، فيكون الجمعُ بين النصّين أنّ خلق مادّة الأرض كان موجودًا، لكنّ تسويتها وإعدادها لمعاش الإنسان إنّما وقع بعد تمام تسوية السماء.

ومن هنا يتبيَّن وجهُ الإعجاز القرآنيّ؛ إذ لو كان الكلام من عند غير الله عزّ وجل، لوقع التناقض بين السورتين، لكنّ القرآن الكريم رتّب البيان على مقتضى المقام، فحيث كان المقصودُ في آية سورة البقرة الامتنان على الإنسان بما في الأرض، قدّم ذكر الأرض، وحيث كان المقصودُ في آية سورة النازعات بيان المراحل الكونيّة، بيّن الترتيب الزمانيّ.

والنتيجة أنّ الآية لا تتضمّن أيّ خطإٍ علميٍّ، بل هي أدقّ في

(١) النازعات:٢٧-٣٠.

البيان من كثيرٍ من التوهّمات المطروحة، والموهوم من التعارض ناشئٌ إمّا من جهلٍ بلغة العرب، أو من غفلةٍ عن تفسير القرآن بعضه لبعض. والقرآنُ الكريم -وهو كلام العليم الحكيم- منزَّهٌ عن أنْ يعارض حقيقةً علميّةً، بل هو الهادي إلى الحقائق قبل أنْ تنكشف لعيون البشر.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

❁❁❁

السؤال:

لماذا قال الله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مع أنّ الناس قد وقعوا في الريب من القرآن؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ليس بصدد حكايةِ حال الناس وما يقع في نفوسهم من الشكوك، وإنّما هو في مقام بيانِ حقيقة الكتاب في نفسه.

فالمراد أنّ القرآن بما هو وحيٌ منزَّلٌ من الله سبحانه منزّهٌ عن الريب، ثابتٌ على وجه اليقين، لا يتطرّق إليه احتمالُ الباطل ولا شبهةُ الخطأ، فهو في مقام الثبوت حقٌّ محضٌ، كما أنّ الشمس في ذاتها نورٌ لا يداخله ظلامٌ.

وأمّا ما قد يقع في بعض النفوس من الريب فهو -في مقام الإثبات- ناتجٌ عن قصور الإدراك أو غلَبة العناد، فيكون الشكُّ

طارئًا على القلوب لا على حقيقة القرآن.

فالفارقُ بين المقامَين أنّ الريب في الواقع منفيٌّ بالكلّيّة، وأمّا في وجدان بعض الناس فقد يظهر، لكنه لا يغيِّر من كون القرآن في ذاته يقينًا لا شكّ فيه.

وجاء في تفسير الأمثل: «وقوله: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ ليس ادّعاءً، بل تقريرٌ لحقيقةٍ قرآنيّة مشهودةٍ، هي أنّ القرآن يشهد بذاته على حقّانيّته»[١].

كما جاء في تفسير كنز الدقائق للمشهديّ: «وإنما نفى الريبَ مع كثرة المرتابين؛ لأنّ الريب مع وضوح مزيجه كلا ريبٍ. ويحتمل أنْ يكون المرادُ أنّ القرآن ليس مظنّةً للريب، بمعنى أنّ العاقل إذا رجع إلى عقله، وترَك العناد، ظهرتْ حقيقتُه وصدْقه عليه غاية الظهور، ولم يبقَ معه شكٌّ وريبٌ أصلًا»[٢].

ولتقريب الفرق بمثالٍ، نقول: كما أنّ الشمس في مقام الثبوت نورٌ محضٌ لا شبهةَ فيه، فكذلك القرآنُ في ذاته يقينٌ لا ريبَ فيه. وأمّا في مقام الإثباتِ فقد يشبه حالَ مَن يسمع كلامًا بليغًا واضحًا في دلالته، لكنّه لا يلتفت إلى معانيه أو يتعمّد تحريفَه، فيرتاب في مدلوله مع أنّ البيان في نفسه لا يَحتمل الريب.

والذي يُستفاد من الجواب على نحوٍ جامعٍ، أنّ المراد من

(١) الأمثل في تفسير، للشيخ ناصر مكارم، ج١، ص٧١.
(٢) تفسير كنز الدقائق، للمشهدي، ج١، ص١٦٥.

قولـه تعالـى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هـو نفيُ الريبِ عـن القـرآن فـي نفسـه، لا الإخبـار عـن خلـوِّ النـاسِ مـن الريـب فـي مقـام التلقّـي. فالكتـابُ مـن حيـث هـو وحـيٌ إلهـيٌّ، قائـمٌ فـي مقـام الثبـوت علـى وجـهٍ لا يتطـرّق إليـه باطـلٌ، كمـا أنّ النـور فـي ذاتـه لا يشـوبه ظلامٌ.

وأمّـا مـا يظهـر مـن شـكوكٍ عنـد بعـض النـاسِ، فهـو مـن شـؤون مقـام الإثبـات، وهـو عائـدٌ إلـى قصـور النظـر أو غلَبـة العنـاد، لا إلـى حقيقـة القـرآن.

والحمـد للـه أوّلًا وآخـرًا، وصلّـى اللـه، وسـلّم علـى سـيّدنا ونبيّنـا محمّـد وآلـه الطيّبيـن الطاهريـن المعصوميـن المنتجَبيـن.

السؤال:

كيف تُفهَم الآية ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾؟ وهل الشرّ من عند الله؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[1] لا يُراد به أنّ الله سبحانه يباشر الخير والشرّ على حدٍّ سواء، فإنّ ذلك ممّا تنزّهتْ عنه ساحةُ قدسِه، بل المرادُ أنّ كلّ ما يجري في عالم التكوين داخلٌ في سلطانِ الله وتقديره، لا يخرج شيءٌ عن ملكه وتدبيره. فالخير من الله تفضُّلًا ورحمةً، وأمّا الشرور فليست محبوبةً عنده ولا مرادةً له بالرضا، ولكنّه سبحانه أذِن بوجود أسبابها ضمن نظام الابتلاء، والإنسانُ هو الذي يختار تلك الأسباب بسوء فِعله، فيتحمّل تبعاتها.

ومن هنا جاء البيان في الآية التي تليها: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[2]، فالنسبةُ إلى الله سبحانه إنّما هي من جهة الخلق والإيجاد، وأمّا النسبة إلى

(١) النساء:٧٨.
(٢) النساء:٧٩.

العبد فهي من جهة الكسب والاستحقاق. فالحسنةُ تُنسَب إلى الله تبارك وتعالى؛ لأنّه هو الواهبُ للنعمة، والسيِّئة تُنسَب إلى الإنسان؛ لأنّه هو الذي جرّها على نفسه بخياره.

فالطبيبُ الخبيرُ قد يصف لمريضِه دواءً نافعًا، فإنْ أخذه المريضُ كما وُصف له انتفع به، وإنْ أساء استعماله أو جاوز الحدّ المقرَّر عاد عليه بالضَّرر. فأصلُ الدواء من الطبيب، غير أنّ الضرر لم يُردْه الطبيبُ، ولم يُرِدْه للمريض، بل نشأ من تصرّف المريض الخاطئ.

ولله المثَل الأعلى، فكذلك النِّعَم الإلهيّة، كلّها خيرٌ محضٌ، فإنِ استعملها العبد في طاعة الله كانت حسنةً تنمو آثارُها، وإنْ صرفها في المعصية انقلبت وبالًا عليه، فيصدُق أنّ الحسنة من الله والسيِّئة من نفسه.

وبهذا البيان يظهر أنّ الآية الكريمة لا تُنافي أصل التوحيد ولا عدلَ الله جلّ وعلا، بل تؤكِّد أنّ سلطان الله شاملٌ لكلّ ما في الوجود، مع بقاء العبد مسؤولًا عن أفعاله واختياراته، فلا يُنسَب إلى الله ظلمٌ ولا عبثٌ، وإنّما يُنسَب إليه الخلقُ والإيجادُ، وتُنسَب إلى العبد جناياتُه واكتسابُه.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على مَن نزّل القرآن على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آله المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر الله به.

السؤال:

كيف يُقال إنّ القرآن يتّسع للمخترعات الحديثة كالذكاء الاصطناعيّ، مع أنّه لم يذكرها نصًّا؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ القرآن كتابُ هدايةٍ وتشريع، لا كتابُ مخترعاتٍ وصناعاتٍ، ومن ثَمّ فلا يُنتظَر منه أنْ يذكر الأسماءَ الحادثة بعد نزوله، وإنما الغرض أنْ يضع الأصولَ الكلّية والقواعد العامّة التي تمتدّ مع الإنسان في جميع أطواره، فيجد فيها الهداية لمستجدّاته. فالذكاءُ الاصطناعيّ وأشباهُه إنما يدخل تحت عمومات قرآنيةٍ واضحةٍ.

فمن تلك العمومات قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾[1]، فهي آيةٌ جامعةٌ لكلّ ما يُستخرَج من أسرار الطبيعة، ويُسخَّر للإنسان نفعًا أو ضررًا،

(١) الجاثية:١٣.

والـذكاء الاصطناعـيّ ليـس إلّا وجهًـا مـن وجـوه هـذا التسـخير.

وكذلـك قولـه سـبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]، إذ يشير إلى مـا يسـتجدّ مـن مخلوقـات اللـه تبـارك وتعالـى التـي لـم يكـن للبشـر علـمٌ بهـا، فـإذا تكشّـفتْ لهـم مـع الزمـن رأوا فيهـا قـدرةَ اللـه عـزّ وجـلّ وسُـنَنه.

ولئـنِ اغتـرّ بعـضُ النـاس بقـدرة هـذه التقنيـات، فـإنّ القـرآن يضـعُ حـدًّا واضحًـا يـردّ الغـرور بقولـه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢]، فهـي تذكـرةٌ بـأنّ العلـم البشـريّ -مهمـا تقـدّم- يظـلّ محـدودًا، وأنّ الـذكاء الاصطناعـيّ إنْ هـو إلّا مـرآةٌ أخـرى لهـذا القصـور أمـام العلـم الإلهـيّ المحيـط.

ثـم إنّ مـا نشـاهده اليـوم مـن دقّـةِ تسـجيلِ الأعمـال فـي الأنظمـة الإلكترونيّـة يقـرّب الأذهـانَ مـن مشـهدٍ أعظـمَ ذَكَـره القـرآنُ الكريـم، إذ قـال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَـذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[٣]، حيـث يواجـه المـرءُ فـي الآخـرة سـجلًّا كاملًا لا يغـادر صغيـرةً ولا كبيـرةً إلّا أحصاهـا. فـإذا كان الإنسـانُ قـد بلـغ أنْ يضـع برامـج تُحصـي وتـدوِّن، فمـا بالُنـا بكتـابٍ وضعـه ربّ العالميـن، وهـو أحكـم الحاسـبين.

---

(١) النحل:٨.
(٢) الإسراء:٨٥.
(٣) الكهف:٤٩.

والخلاصة، أنّ القرآن لم يشِر إلى الذكاء الاصطناعيّ بالاسم المصطلح عليه اليوم، ولكنه أشار إلى سُننٍ وقوانينَ تشمل كلّ العصور، وتجعل هذه الابتكارات داخلةً في إطار الهداية القرآنيّة، لا خارجةً عنها.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال:

هل دلّ القرآن على عذاب القبر، أم أنّه ثابت بالروايات فقط؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ أصل القول بعذاب القبر ونعيمِه ثابتٌ في القرآن الكريم، ثم جاءت السنّةُ المأثورة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام مبيِّنةً لتفاصيله.

فمن القرآن، أوضحُ الشواهد قوله سبحانه في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[1]. فقد دلّت الآيةُ على عرْضٍ سابقٍ لقيام الساعة، ثم عذابٍ أشدّ بعد قيامها. وهذا العرض ليس من شؤون الدنيا التي انقطعت بالموت، ولا هو من أحوال يوم القيامة قبل قيامها، فيتعيّن كونُه في عالمٍ متوسطٍ هو البرزخ، وهو عين ما يُعبَّر عنه بعذاب القبر.

---

(١) غافر:٤٦.

ويعضد ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١]، وهو نصٌّ في إثبات حياةٍ فاصلةٍ بين الموت والبعث تمتدّ إلى يوم القيامة، وهي بطبيعتها محلُّ إدراكٍ وجزاءٍ. وكذلك قوله عزّ وجل في الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢]، فقد أثبتَ لهم حياةً ورزقًا وفرحًا بعد الموت، وهذا نعيمٌ برزخيّ يقابله العذاب للكافرين، بل قال سبحانه: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، وقد حمل غيرُ واحدٍ من المفسّرين إحدى المرَّتين على عذاب القبر.

وأمّا السنّة الشريفة فقد روتْ عن أئمّة الهدى عليهم السلام ما يشرح هذا الأصل، ويُفصِّل أحوالَه؛ ففي البحار عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام: «إنّ القبر روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حُفر النيران»[٤].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يا عبادَ اللهِ، ما بعد الموت لمن لا يُغفَر له أشدُّ من الموت»[٥]، ثم ذَكر ضغطة القبر وسؤاله وظُلمته.

وفي تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله

(١) المؤمنون:١٠٠.
(٢) آل عمران:١٦٩.
(٣) التوبة:١٠١.
(٤) بحار الأنوار، ج٦، ص٢١٦.
(٥) بحار الأنوار، ج٦، ص٢١٨.

سبحانه: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: «هذا في البرزخ قبل يوم القيامة»[١].

فتحصّل أنّ القرآنَ الكريمَ أثبت أصل الحياة البرزخيّة وما فيها من عرضٍ على النار أو نعيمٍ من عند الله تعالى، وأنّ السنّة الشريفة فصّلتْ كيفيّات ذلك من سؤالٍ وضغطةٍ وفتْحِ أبواب النعيم أو العذاب. فالقبر أوّلُ منازل الآخرة، فيه تلاقي النفسُ حقيقةَ عملها نعيمًا أو عذابًا، وهو من لوازم الاعتقاد بالمعاد.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله على سيّدنا ونبيّنا محمدٍ وآله الطاهرين المعصومين المنتجبين.

❁❁❁

(١) مجمع البيان، للطبرسي، ج٨، ص٤٤٦.

السؤال:

ما الفرق بين النفس والروح، ولماذا أسند القرآن الموت إلى النفس دون الروح؟ أُريد الجواب وفق البيان القرآني والروائي.

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ مثل هذه المسائل الغيبيّة لا يَثبُت فيها القولُ إلّا من طريق الوحي، وقدِ اعتمدنا في الجواب على ما ورد في كتاب الله الكريم، وما صحّ من أخبار العترة الطاهرة عليهم السلام.

أولًا: النفس في الاستعمال القرآنيّ، هي حقيقةُ الإنسانِ المكلَّفة، المدرِكة، وهي محلُّ الخطاب الإلهيّ أمرًا ونهيًا، وثوابًا وعقابًا. فهي الذات الباقيَة بعد الموت، التي تنتقل بين أطوار الوجودِ: الدُّنيا، والبرزخ، والآخرة؛ ولهذا جاءتِ الآيات القرآنيّة متوجِّهةً إلى النفس في مقام التكليف والجزاء، قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

﴿وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[١]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢]، وقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾[٣]، وقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[٤]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٥]، وكلُّها تصرِّح بأنّ المخاطب بالتكليف والمحاسبة والجزاء هو النفسُ لا الروحُ.

أما الروح فهي الأمر الإلهيُّ الذي به قيام الحياة الجسديّة، وبه تتّصل النفسُ بالبدن، فإذا خرجتِ الروح انقطعتِ الحياة الحسيّة، وانفصلتِ النفسُ عن الجسد، وانتقلتْ إلى عالَمٍ آخر.

والروح ليستْ هي محلَّ التكليف ولا الجزاء، وإنما هي أداةُ الحياة التي تسخّرها النفسُ ما دام اتصالُها بالبدن قائمًا. وحقيقتُها فوق ما أُوتي البشرُ من العلم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٦]، فهي من عالم الأمر، أيْ مما خلقه اللهُ تبارك وتعالى ابتداءً بلا وسائطِ الأسباب الماديّة، فجعلها سببًا للحياة الجسديّة ومظهرًا من مظاهر قدرتِه.

وقد ورد عن الإمامِ الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ

(١) البقرة:٢٨٦.
(٢) المدثر:٣٨.
(٣) الأنعام:١٦٤.
(٤) الفجر:٢٧-٢٨.
(٥) آل عمران:١٨٥.
(٦) الإسراء:٨٥.

﴿يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[١]: قوله: «ما من أحدٍ ينام إلّا عرجت نفسُه إلى السماء، وبقيتْ روحُه في بدنه، وصار بينهما سببٌ كشعاع الشمس، فإنْ أذِنَ اللهُ في قبْض الأرواح أجابتِ الروحُ النفسَ، وإن أذِن اللهُ في ردِّ الروح أجابتِ النفسُ الروحَ، فهو قوله سبحانه: اللهُ يتوفَّى الأنفسَ حين موتها»[٢].

ثانيًا: القرآنُ الكريم أسند الموتَ إلى النفس، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، ولم يُسنِد الموتَ إلى الروح، وليس معنى موت النفس فناءَها أو انعدام حقيقتها، بل المراد أنها تذوقُ حالة مفارقة الروح للبدن، فتنتقل من النشأة الدنيويّة إلى النشأة البرزخيّة.

والموت بالمعنى الدقيق هو خروج الروح من الجسد، غير أنّ أثره يقع على النفس من حيث انتقالها وانفصالها عن أدواتها الجسديّة، وهي التي تدرك هذا الانتقال وتباشرُه؛ فلذلك أُسنِد إليها.

ثالثًا: النفس تبقى حيّةً مدرِكة في البرزخ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣]، فهي التي تُنعَّم أو تُعذَّب بحسب عملها، حتى تُعاد إلى الجسد يوم القيامة.

وأما الروحُ التي كانت سبب الحياة الجسديّة فقد فارقت البدن عند الموت، فلا أثر لها فيه بعد ذلك إلّا عند البعث.

(١) الزمر:٤٢.
(٢) تفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي، ج ٨، ص٤٠٤.
(٣) المؤمنون:١٠٠.

والنـومُ نمـوذجٌ واضـح لقبـض النفـس دون خـروج الـروح، قـال تعالـى: ﴿اللَّـهُ يَتَوَفَّـى الأَنْفُـسَ حِيـنَ مَوْتِهَـا وَالَّتِـي لَـمْ تَمُـتْ فِـي مَنَامِهَـا فَيُمْسِـكُ الَّتِـي قَضَـى عَلَيْهَـا المَـوْتَ وَيُرْسِـلُ الأُخْـرَى إِلَـى أَجَـلٍ مُسَـمًّى﴾[1]. ففـي النـوم تُقبَـض النفـسُ عـن إدراكهـا، وتبقـى الـروحُ فـي الجسـد محافظـة علـى حياتـه، فـإذا رُدّتِ النفـسُ عـاد الإدراك، وإذا أُمسِـكت كان المـوت التـامّ.

والخلاصـة أنّ المـوت فـي حقيقتـه خـروجُ الـروح مـن الجسـد، فتتوقَّـف بـه الحيـاة الجسـديّة، والنفـسُ لا تفنـى بالمـوت، وإنمـا تنتقـل مـن الدنيـا إلـى البـرزخ، وهـي التـي تـذوق هـذا الانتقـال، وتدركـه، وتبقـى إلـى أنْ تُعـاد إلـى الجسـد يـوم القيامـة.. ولهـذا كان إسـنادُ المـوت إلـى النفسِ فـي القـرآن مـن بـاب إسـناد الفعـل إلـى مَـن يباشـره أثـرًا وشـعورًا، لا مـن بـاب فنـاء الـذات وانعدامهـا.

فهـذا هـو الـذي وقفنـا عليـه مـن البيـان القرآنـيّ والروائـيّ، ولـم نُشِـر إلـى مـا قـد يَـرِد فـي بعـض الاسـتعمالات مـن إطلاق الـروح وإرادة النفـس، دفعًـا لمـا قـد يسـبِّبه ذلـك مـن عـدم وضـوحٍ لـدى السـائل والقـارئ.

والحمـد للـه أوّلًا وآخـرًا، وصلّـى اللـه، وسـلّم علـى سـيّدنا ونبيّنـا محمّـد وآلـه الطيّبيـن الطاهريـن المعصوميـن المنتجَبيـن.

---

(١) الزمر:٤٢.

السؤال:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. هل الأيام الستة هنا هي من أيامنا الشمسية؟ وما معنى يوم القيامة وطوله في ضوء الروايات؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ لفظَ "اليوم" في لسانِ القرآن الكريم لا يُحمَلُ دائمًا على اليوم المعهود عندنا المؤلَّفِ من طلوع الشمس إلى غروبها، بل يجري بحسب المقام والمراد، فاليوم عند الله تعالى لا يُقاس بالشمس ولا بالقمر؛ لأنّ الزمان فرْعُ الحركة، والحركةُ فرْعُ الأجرام، والله سبحانه خلَق الأجرام بعد أنْ قدّر لها نظامها.. فقبل خلق السماوات والأرض لم تكن هناك شمسٌ ولا فلكٌ لتُقاس به الأيام.

لذلك يُطرح هذا السؤالُ: قبل أنْ تُخلق السماواتُ والأرضُ لم يكن ليلٌ ولا نهارٌ، فكيف يُقال: خُلِقت السماواتُ والأرض

في ستة أيّام، مع أنّ الليلَ والنهار ناشئان من دوران الأرض حول نفسها في مقابل الشمس؟

وهذا مضافًا إلى أنّ القول بظهور المجموعة الكونيّة في ستة أيّام -أي أقلّ من أسبوع- يخالف ما أثبته العلم؛ إذ يرى أنّ تكوُّن الأرض والسماء حتى بلغا وضعهما الحالي قد استغرق مليارات السِّنين.

ولكنّ التأمُّل في المفهوم الواسع للفظة "يوم" وما يعادلها في سائر اللغات يُزيل الإشكال؛ إذ كثيرًا ما يُستعمل اليوم بمعنى الدَّورة، سواء استغرقت سنةً أو مائة سنة أو مليونًا أو مليارات السنين.

وقد جاءت الشواهد القرآنيّةُ واللغويةُ والروائيّة على هذا الاستعمال بالنحو الآتي:

إنّ لفظ "اليوم والأيام" قد ورد في القرآن الكريم مئات المرّات، ولم يُرَدْ به دائمًا اليوم المكوَّن من ليلٍ ونهار، فمثلًا يُعبَّر عن عالم البعث بـ "يوم القيامة"، وهو دورةٌ طويلةُ الأمد والمدّة، وقد قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1]، وهو شاهدٌ على أنّ المراد هو الطور الزمنيّ الطويل لا اليوم الفلكيّ القصير.

وفي كتب اللغة نجد هذا المعنى صريحًا، فقد قال الراغب

(١) المعارج: ٤.

في المفردات: «"اليوم" يُعبَّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يُعبَّر عن مدّةٍ من الزمان أيًّا كانتْ»[١].

وجاء في روايات أئمّة الدِّين عليهم السلام إطلاقُ "اليوم" بمعنى الدهر، كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «الدهر يومان: يومٌ لك ويومٌ عليك»[٢].

وفي تفسير البرهان عن تفسير علي بن إبراهيم، عن الإمام عليه السلام: «في ستة أيّام، أي في ستة أوقات»[٣]، أي ست دورات متعاقبة.

وكذلك في لسان العرب والعجَم، يُستعمل اليوم بمعنى العهد أو الدورة، فنقول: (يوم كانت الأرض حارّةً مشتعِلة)، و(يوم ظهرت فيها آثارُ الحياة)، مع أنّ تلك الفترات استغرقت ملايين السنين.

ونقول أيضًا: (غصبَ بنو أُميّة الخلافةَ يومًا، وغصبها بنو العبّاس يومًا آخر)، مع أنّ تلك الأزمنة امتدّت لعشراتِ أو مئاتِ السنين[٤].

ومن مجموع ما تقدّم يتّضح أنّ المراد من الأيام الستّة في قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٥]، هو ستُّ مراحل من التقدير والتكوين، لا ستة أيّامٍ

(١) المفردات في غريب القرآن، ص٨٩٤.
(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص١٣٣.
(٣) البرهان في تفسير القرآن، للسيد هاشم البحراني، ج٥، ص٢٨١.
(٤) يُنظر: تفسير الأمثل، ج٥، ص٧١.
(٥) السجدة: ٤.

شمسيّةٍ من أيامنا هذه.

وأمّا ما ورد عن طول يوم القيامة، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «فإنّ للقيامة خمسين موقفًا، كلُّ موقفٍ مقدارُه ألف سنةٍ»[١].

والنتيجة أنّ الأيام السِّتة ليستْ من أيّامنا، بل هي ستّ دوراتٍ أو مراحل من مراتب التقدير الإلهيّ للخلق، وإنّ يوم القيامة ليس كأيّام الدنيا، بل هو طورٌ وجوديٌّ آخر، له نظامُه الخاصّ، يُدرَك بطريق الإيمان، لا بمعيار الحساب الدنيويّ أو الفلكيّ.

والحمدُ لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّدٍ وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجبين.

❁❁❁

(١) الكافي، ج٨، ص١٦٧.

السؤال:

الآية الكريمة: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦] تدلّ على وجود صباحٍ ومساءٍ في عالم البرزخ، والغدوّ والعشيّ لا يتحقّقان إلّا بتعاقب الشمس والقمر، فهل يعني ذلك أنّ في البرزخ ليلًا ونهارًا كالدنيا؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

أولًا: تعريف البرزخ:

لغةً: البرزخ في لسان العرب هو الحاجز بين الشيئَين، قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾[1]، أي حاجزٌ يفصل بين البحرَين.

اصطلاحًا: استُعمِل لفظُ البرزخ في القرآن بمعنى الحياة المتوسِّطة بين الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ

(١) الرحمن: ١٩-٢٠.

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١].

فالبرزخ إذنْ عالَمٌ مستقلٌّ، له قوانينُه الخاصّة، وهو حياةٌ متوسطة تبدأ بعد الموت، وتنتهي بالبعث.

وإذا تبيّن هذا ظهر أنّ الخطأ كلّ الخطأ في قياس البرزخ على الدنيا في قوانينها الزمانيّة والفلكيّة، وأنّ ألفاظ القرآن الكريم ينبغي أنْ تُفهَم في ضوء هذا التمايز.

ثانيًا: معنى الغُدوّ والعشيّ:

إنّ الغدوّ والعشيّ في لسان العرب قد يُستعملان في الحقيقة الزمانيّة، لكنّهما كثيرًا ما يُراد بهما مطلَق التكرار والمداومة، فقد جاء في أشعارهم وأمثالهم قولهم: (أزورك بكرةً وعشيًّا)، وقولهم: (أدعوه صباحًا ومساءً)، وهم لا يريدون التحديدَ بالزمان، بل يُراد به الملازمة والتكرار.

ومن هنا كان استعمالُ القرآن الكريم لهذا الأسلوب في مقام تقريب المعنى الغيبيّ إلى الأذهان؛ إذ لا يَعرف الناس غير هذه الألفاظ في تصوير الدوام.

وقد استعمل القرآنُ هذا التعبير نفسَه في مقام الحديث عن نعيم الجنة، قال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٢]، ومن المعلوم أنّ الجَنة لا شمس فيها ولا قمرَ، كما قال جلّ شأنه:

---

(١) المؤمنون: ٩٩-١٠٠.
(٢) مريم: ٦٢.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[١].

قال الشريف الرضيُّ في تلخيص البيان في مجازات القرآن[٢]: «قوله سبحانه في ذكر أصحاب الجنة: ﴿ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعشيًّا﴾، أي مثل أوقات البكرة والعشيّ المعهودتين في حال الدنيا؛ لأنّ الجنة لا يوصف زمانُها بالأيام والليالي؛ إذ ذلك من صفات الزمان الذي تتعاقب عليه الشمسُ طالعةً وغاربةً، فيسمّى نهارًا بطلوعها، ويسمّى ليلًا بقبوعها».

وقال صاحب الأمثل في تفسير كتاب الله المُنزَل[٣]: «إنّ التعبير بـ(الغُدوّ) و(العشيّ) قد تكون فيه إشارة إلى استمرار العذاب».

وجاء في تفسير نور الثقلين عن تفسير عليٍّ بن إبراهيم: «وقوله: ﴿النار يُعرَضون عليها غُدوًّا وعشيًّا﴾، قال: ذلك في الدنيا قبل القيامة؛ لأنّه في القيامة لا يكون غُدوٌّ ولا عشيٌّ؛ إذ الغُدوّ والعشيّ إنّما يكونان بالشمس والقمر، وليس في جنان الخلد ونيرانها شمسٌ ولا قمر»[٤].

فدلّ ذلك على أنّ المراد من (بُكرةً وعشيًّا) دوام الرزق وتجدُّد النعمة، لا حقيقة الصبح والمساء. فإذا صحّ ذلك في الجنة، صحّ مثله في البرزخ.

---

(١) الإنسان:١٣.
(٢) ص٢٥١.
(٣) ج ١٥، ص ٢٧٣.
(٤) نور الثقلين، ج٥، ص٤٨٠.

فالآيـة الكريمـة ليسـتْ فـي مقـام إثبـات نظـامٍ زمانـيٍّ دنيـويٍّ للبـرزخ، وإنّمـا جـاءتْ لتصويـر دوام عـرض آل فرعـون علـى النـار بلغـةٍ يفهمهـا النـاس.

أمّـا البـرزخُ فهـو حيـاةٌ متوسـطةٌ، لهـا قوانينُهـا الخاصّـة، لا تُـدرَك حقيقتهـا إلّا بالوحـي، ولا تُقـاس بأحـكام الدنيـا.

ومما تقـدّم ثبـت أنّ دعـوى السـائل بـأنّ آيـة آل فرعـون شـاهدةٌ علـى وجـود صبـاحٍ ومسـاءٍ فـي البـرزخ، وبالتالـي علـى وجـود شـمسٍ وقمـرٍ فيـه، دعـوًى سـاقطةٌ مـن أصلهـا.

فالبـرزخ عالـمٌ مستقلٌّ، وهـو ليـس اسـتمرارًا للدنيـا، بـل هـو طـورٌ خـاصٌّ بيـن المـوت والبعـث، وقـد عبّـر القـرآن الكريـمُ عنـه بألفـاظٍ مألوفـة لتقريـب الصـورة، ولفـظ ﴿غُـدُوًّا وَعَشِـيًّا﴾ ليـس إلّا تصويـرًا لدوام العـذاب وتكـرُّره، كمـا استُعمِل فـي الجنـة لـدوام النعيـم وتجـدُّد الـرزق.

فبـان بوضـوحٍ أنّ المـراد مـن الآيـة دوامُ العـرض واسـتمرارُه، لا إثبـات ليـلٍ ونهـارٍ فـي البـرزخ، وبذلـك يـزول التوهُّـم، ويثبـت الحـقُّ علـى وجهـه الصحيـح.

والحمـد للـه أوّلًا وآخـرًا، وصلّـى اللـه، وسـلّم علـى سـيّدنا ونبيِّنـا محمّـدٍ وآلـه الطيّبيـن الطاهريـن المعصوميـن المنتجَبيـن.

السؤال:

كيف نوفّق بين قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، و﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، وبين عدل الله تعالى الذي لا يُجبِر أحدًا على الكفر؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

الآيات التي تصف حال الكافرين بقول الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾[١]، و﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[٢]، و﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[٣]، لا تعني أنّ الله أجبَرهم على الكفر، ولا أنّه منعهم من الهداية منعًا قهريًّا، فإنّ هذا ينافي العدل الإلهيّ، وقد ثبت في القرآن أنّه سبحانه لا يظلم أحدًا من عباده، فقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[٤].

والمعنى الصحيح لهذه الآياتِ هو أنّ الله تعالى يصف أثرَ اختيارِهم

---

(١) الأنعام:٢٥.
(٢) البقرة:٧.
(٣) البقرة:٧.
(٤) فصّلت:٤٦.

وإصرارِهم على الباطل؛ فحينما يُعرِض الإنسان عن الحقّ بعد وضوحه، ويتمادى في العناد والجحود، تكون عاقبتُه أنْ يُطبَع على قلبه، ويُحرَم من نور الهداية. فـ(الختم) و (الأكنّة) و(الغشاوة) هي نتيجةٌ لأفعالهم، لا أمورٌ ابتدائيّة فُرِضت عليهم جبرًا وقهرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[1]، أي بسبب كفرهم وإصرارهم عليه.

فالله سبحانه لم يُجبِرهم على الكفر، ولكنْ لمّا اختاروا الكفرَ بإرادتهم، ورفضوا الدعوات المتكرّرة إلى الحقّ، تركهم اللهُ عزّ وجل، ونزَع عنهم التوفيق، فصار ذلك كالطابع على قلوبهم، وكالغشاوة على أبصارهم، عقوبةً وعدلًا، وهذا من سُنن الله تبارك وتعالى في عباده، فإنّ مَن يركب طريقَ الضلال عنادًا، يُجزى بحرمان الهداية.

والنتيجةُ أنّ نسبة الختم والأكنّة إلى الله عزّ وجل هي من باب بيان السُّنّة الإلهيّة في معاملة المُصرّين على الكفر، وأنّهم لمّا أعرضوا، وتمادوا، عُوقبوا برفع التوفيق عنهم، حتى صاروا كمن لا يسمع، ولا يبصر.

وبذلك يرتفع الإشكالُ، ويبقى الأصل ثابتًا، وهو أنّ الله سبحانه لا يُجبِر أحدًا على الكفر، بل الناس يختارون طريقَهم، ثم تأتي آثارُ الاختيار عقوبةً أو رحمةً بحسب ما قدّموا.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

---

(١) النساء: ١٥٥.

السؤال:

إذا كانت سلامة جسد الميت بعد موته تُعدّ عندكم علامة كرامة ودليل صلاح، فكيف تفسّرون بقاء أجساد بعض الكفّار والفسّاق محفوظةً لا تبلى؟ أ ليس يلزم من ذلك أن يكونوا من أهل الكرامة أيضًا؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ هذا الإشكال من أوهى الشبُهات وأبعدها عن التحقيق؛ لأنّه بُني على أساسٍ فاسد، وهو جعْل سلامة الجسد بعد الموت دليلًا على السعادة والكرامة، وهذا من التخبُّط؛ إذ المدارُ في عاقبة الإنسان هو الإيمان والطاعة، لا ما يبدو على الأجساد من آثار طبيعيّة.

فنحن نقول: الرواياتُ الواردةُ عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام نصّت على أنّ بعض الأعمال المخصوصة، كالمداومة على غُسل الجمعة، يترتّب عليها أنْ لا تأكلَ الأرضُ جسد صاحبها، وهذا وعدٌ

ربّانيٌّ صادق، لا يتوقّف على طبيعة التربة ولا على حالة المناخ.. فهو من سنخ الإكرام الغيبيِّ، لا من سنخ العوامل المادّيّة.. أمّا ما يظهر من بقاء أجساد بعض الفسّاق والكفّار، فهو أمرٌ راجعٌ إلى التّربة أو المناخ أو الجفاف أو نحو ذلك من الأسباب الطبيعيّة، وأيّ عاقلٍ يُسوّي بين جسدٍ حفظتْه الأرض برطوبةٍ أو برودةٍ، وبين جسدٍ وعَد اللهُ تبارك وتعالى بحفظه تكريمًا له؟!

وهنا شاهدٌ واقعيٌّ لا يماري فيه أحدٌ:

أجسادُ الفراعنة التي حُنِّطت منذ آلاف السنين ما زالت تُعرَض في المتاحف بملامحها وجلودها، يراها كلُّ إنسانٍ بعينه، فهل يجرؤ عاقلٌ على القول: إنّها آيةُ كرامةٍ، وإنّ فرعون وأضرابه صاروا أولياء لله جلّ وعلا؟! بل إنّ القرآن الكريم نفسَه قد قطع العذر في هذا الباب، إذ قال سبحانه مخاطبًا فرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[1]. فالآية صريحةٌ بأنّ الله أبقى جسده لا تكريمًا له، بل إهانةً وعبرةً للبشر، ليكون جسدُه الآفلُ شاهدًا على خزيه، لا على منزلته. فبقاءُ الجسد قد يكون آيةَ غضبٍ كما قد يكون آية كرامةٍ، ولا يُعرف أحدهما من الآخر إلا بالوحي.

فإنْ قيل: إنّا لم نرَ كثيرًا من هذه الكرامات في الخارج، فأين أثرُ الوعد؟

---

(١) يونس:٩٢.

قلنا: وهل كلّ ما وعد اللهُ سبحانه به يلزم أنْ يُعرض على أعينكم ليطمئنّ وجدانُكم؟! العاقل يكتفي بثبوت النصّ عن المعصوم، ولا يجعل عدمَ مشاهدته حجّةً على بطلان القول. فدعواكم أشبهُ بقول مَن أنكر الملائكة؛ لأنّه لم يرَها بعينه.

فإنْ قيل: وما الفرقُ بين بقاء جسد المؤمن والفاسق، وكلاهما قد شوهد باقيًا؟

قلنا: الفرقُ هو الدليل. المؤمنُ ثبَت نصٌّ في شأنه، فهو خارجٌ عن حكم الطبيعة، والفاسقُ لم يثبُت فيه نصٌّ، فيُردّ إلى العلل المادّيّة. فمن سوّى بينهما فقد سوّى بين ما ثبت بالوحي وبين ما وقع بأسبابٍ طبيعيّة نادرة جدًّا. وهذا قلبٌ للحقائق، بل هو عين المكابرة.

فإنْ قيل: قد يُقال: إنّ الحفريّات لم تستوعبْ كلّ الأرض، فلعلّ فيها أجسادًا محفوظة لم تُكشَف؟

قلنا: حتى لو وُجِدت، فهي من باب النادر، والنادرُ لا يُجعَل أصلًا ولا قاعدة. والعبرة بما اطّرد في سُنن الله سبحانه في الأرض، وهو أنّ الجسد يبلَى، ويفنى، وما خرج عن ذلك فهو استثناءٌ إلهيٌّ أو أثرٌ طبيعيٌّ خاصّ، لا أكثر.

فإنْ قيل: فما الفائدة من النصوص إذا كانتِ الكرامة لا تُرى غالبًا؟

قلنا: الفائدة هي وعد المؤمن وتطمينُه أنّ طاعته لا تضيع، وأنّ لله عزّ وجل عنايةً خاصّةً بأوليائه، يُظهِرها حيث يشاءُ، ويسترها حيث يشاء. وأيّ عاقلٍ يجعل خفاء الكرامة دليلًا على عدمها؟! بل هذا من قصور النظر؛ لأنّ كثيرًا من ثواب الأعمال مخفيٌّ إلى يوم القيامة، أ فينكرونه لعدم مشاهدته الآن؟!

والنتيجة أنّ الإشكال ساقطٌ؛ لأنّه بنى دليله على خلطٍ فاضحٍ؛ إذ جعل ما هو من سُنن الأرض معيارًا لما هو من سُنن الوعد الإلهيّ. ولو لزم ما يقولون للزم إثباتُ الكرامة لفرعون والمجوس وكلّ محنَّطٍ وميتٍ حفظتْه الأرض، مع أنّ القرآن الكريم صرّح بأنّ بقاء جسد فرعون إنّما كان آية غضبٍ وإذلالٍ، لا آية رحمةٍ وكرامة. فهل بعد هذا من سفهٍ أوضح؟

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال:

إذا كان اللهُ قد خلق في الإنسان الغرائزَ التي تدفعه إلى الشهوة والغضب وحبّ المال، فلماذا يُحاسبه ويعذّبه إذا استجاب لتلك الدوافع، مع أنها من خلقه تعالى؟ أليس ذلك منافياً للعدل؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ دعواك: كيف يعاقبني اللهُ، وقد ركّب فيَّ الغرائز، وهو القائل: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[1]، دعوًى مردودةٌ، منشؤها الخلط بين ما هو ميلٌ قهريٌّ لا يدَ للعبد فيه، وبين ما هو فعلٌ اختياريٌّ تقوم به حجّة التكليف.

فالغرائزُ بما هي غرائزُ لا تُعَدّ ذنبًا، بل هي بواعثُ يُمتَحن بها العبد، والذنبُ لا يتحقّق إلّا إذا استجاب العبدُ لغرائزه باختياره مع علمه بحرمة الفعل.

---

(١) يوسف:٥٣.

ولو كان مجرّدُ الميل عذرًا، لسقط الحدُّ عن السارق؛ لأنّه أحبَّ المال، ولسقط الوزر عن الزاني؛ لأنّ في نفسه شهوةً، ولسقط القتلُ عن القاتل بحجّة الغضب، ولتعطّلتِ الشريعة، وانقضى معنى الثواب والعقاب، وهذا ما يدفعه العقلُ الصريح؛ فإنّ مناطَ المدح والذمّ ليس وجود الميول، بل طريقة التصرُّف حيالها.

وأمّا قوله تعالى: ﴿النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، فليس اثباتًا للجبر، بل هو وصفٌ لحالِ النفس إنْ تُركت بلا وازعٍ، ثم استثنى بقوله: ﴿لَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾، أيْ إلّا مَن شملتْه الرحمةُ بالتوفيق والتسديد، ولو كان الأمرُ قهرًا لا اختيارَ فيه، لما صحّ أنْ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1]، فإنّ الفلاحَ والخيبة إنما يُتصوَّران في مقام الاختيار.

والرحمةُ هنا ليست إسقاطَ التكاليف، بل هي تمكينُ العبد من العقل والقدرة، وفتْح سبيل الهداية له. فمن شاء أنْ يزكّي نفسَه استمدّ من الرحمة الخاصّة، ومَن أعرض بعد قيام الحجّة فقد سدّ على نفسه أبوابَها، ولو لم تُجعَل في الإنسان ميولٌ وشهواتٌ، لكان خلْقه كخلق الملائكة، ولانتفى الامتحانُ، ولصار الثواب والعقاب لغوًا، وذلك ما لا يليق بعدل الحكيم.

(١) الشمس:٩-١٠.

ولتقريب المعنى بمثالٍ:

إنّ مَن يقود سيارتَه تحثّه رغبتُه على السرعة، غير أنّ إشارات المرور أمامه تحدِّد له موضع التوقُّف والانطلاق.. فإنِ استجاب لها حفِظ نفسه والناس، وإنْ تجاوزها مختارًا وعرّض نفسَه أو غيره للهلاك، فاللوم إنما يقعُ على تجاوزِه للنظام واختياره المخاطرة، لا على أصل ميله الطبيعيّ إلى السرعة.

وهكذا الغريزةُ، فهي وقودٌ محرّكٌ، والعقل والشرع قيدان يضبطان حركتَها، فمَن أعرض عنهما مختارًا كان مستحقًّا للمؤاخذة والعقاب.

فالخلاصة أنّ الله تبارك وتعالى لم يضعِ الغرائز في الإنسان عبثًا، بل جعلها مادةَ امتحانٍ، ليُظهِر المطيعَ من العاصي.. والمؤاخذةُ ليستْ على أصل الغريزة، بل على طاعة الهوى مع قيام الدليل والقدرة على الكفّ، فلو رُفِعت المؤاخذةُ بحجّة الغريزة لانهدم العدل، ولصار المطيعُ والعاصي سواءً، وذلك هو الظلم بعينه، والله جلّ شأنه منزَّهٌ عن الظلم.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّدٍ وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجبين.

السؤال:

القرآنُ يقول: ﴿وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إيّاه﴾. كما يقول: ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كنْ فيكون﴾. فما دام اللهُ قد قضى ألّا نعبد إلّا إياه، فلماذا ظلّ أكثر من نصف سكان العالم لا يعبدونه؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ هذا الإشكال ناشئٌ عن خلطٍ واضحٍ بين القضاء التكوينيّ والقضاء التشريعيّ، وهو من المغالطات التي تكرَّرت في أذهان القاصرين عن إدراك دقائق المعاني القرآنيّة. فإنّ قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[1] لا يدلّ على الجبر في العبادة، بل هو قضاءٌ تشريعيٌّ، أيْ أمرٌ وإلزامٌ من الله لعباده بأنْ يعبدوه وحدَه، وليس أنه أجبرهم تكوينًا بحيث لا يمكنهم الخروجُ عن ذلك. وهذا بيِّنٌ في القرآن الكريم، حيث أثبت للإنسان حريّة الاختيار، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

(١) الإسراء:٢٣.

﴿فَلْيَكْفُرْ﴾[١]، مما يدلّ على أنّ العبادة لله هي أمرٌ واجبٌ على العباد، لكنها لا تحصل بالإجبار والقسر، بل بالتكليف والاختبار.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢]، فهو يتحدَّث عن القضاء التكوينيّ، أي أنّ الله عزّ وجل إذا أراد إيجاد شيءٍ تكوينًا فإنه يتحقَّق لا محالة، لكنه في ذات الوقت شاء أنْ يكون للإنسان حريّة الإرادة في التكليف؛ ولذلك قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٣]، مما يدل على أنّ مشيئتَه لم تتعلَّق بإجبار الناس على الإيمان، بل تعلَّقت بخلقهم مختارين ممتحَنين، ليكون الثواب والعقاب قائمًا على الاستحقاق لا على القهر.

وهذا ما بيّنه أميرُ المؤمنين عليه السلام حينما سُئِل عن القضاء والقدر، فقال: «ويحك لعلك ظننتَ قضاءً لازمًا وقدرًا حاتمًا. ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد. وإنّ الله سبحانه أمر عباده تخييرًا، ونهاهم تحذيرًا، وكلَّف يسيرًا، ولم يكلفْ عسيرًا، وأعطى على القليل كثيرًا. ولم يُعصَ مغلوبًا، ولم يُطَع مكرهًا، ولم يرسِل الأنبياء لعبًا، ولم يُنزِلِ الكتب للعباد عبثًا، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا»[٤].

(١) الكهف:٢٩.
(٢) البقرة:١١٧.
(٣) يونس:٩٩.
(٤) نهج البلاغة، ج٤، ص ١٧.

وهذا النص الشريف يضع اليدَ على أصل المسألة، فإنّ القضاء الذي يترتّب عليه الامتحان والثواب والعقاب هو قضاءٌ تشريعيٌّ تكليفيٌّ، لا جبرَ فيه ولا إلزامَ قهريّ، وإلّا لبطلتِ الحكمةُ من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وسقط معنى الابتلاء من أساسه.

وجاء في كتاب «أنوار الأصول» بيانٌ لكلامه عليه السلام، ونصُّه: «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عدَل من عند حائطٍ مائلٍ إلى حائطٍ آخر، فقيل له: يا أمير المؤمنين، تفرّ من قضاء اللَّه؟ قال: "أفرّ من قضاء اللَّه إلى قدر اللَّه عزّ وجلّ". فإنّه على كلا تفسيريْه شاهدٌ لما قلناه، فإنْ كان المراد منه القضاء والقدر التكوينيَّين فمعناه أنّي أفرّ من قضاء اللَّه التكوينيّ (وهو أصل سقوط الحائط المائل على الإنسان الموجِب للجرح أو القتل) إلى قدره التكوينيّ، وهو أنّ الحائط المائل يوجب قتل الإنسان أو جرحه في ما إذا لم يُعمل الإنسانُ اختياره، ولم يفرّ منه بإرادته، فإنّ أصل إيجاب الحائط المائل بعد سقوطه قتلَ الإنسانِ من قضاء اللَّه، ولكنّ هذا القضاء مقدّرٌ ومشروط بعدم إعمال الإنسان اختياره وإرادته وبعدم عدوله وفراره منه إلى مكان آخر. وإن كان المرادُ منه القضاء التكوينيّ والقدر التشريعيّ فمعناه أنّ موت الإنسان بالحائط المائل وإن كان بقضاء اللَّه وإرادته، ولكنّه تعالى أمر الإنسان تشريعًا بالعدول والفرار، فكما أنّ موت الإنسان بالحائط من قضاء اللَّه التكوينيّ يكون فرارُ الإنسان منه أيضًا من قدره التشريعيّ. ولا يخفى أنّ الحديث على كلا المعنيَين أصدق شاهدٍ على أنّ شمول قانون

العلّية لجميع الأشياء التي منها أفعال الإنسان الاختياريّة لا ينافي اختيارَه وإرادته»[١].

ولو أردنا تقريب المعنى بمثالٍ، نقول:

لو قلنا لك: إنّ النار إذا لامست الورقَ، فماذا ستقول؟ ستقول حتمًا وجزمًا: الورق سيحترق لا محالة. فنقول: هذا هو القضاء التكوينيّ الذي لا يتخلّف.

ولو قلنا لك: إنّ الدولة قضت بقانون يمنع تجاوز الإشارة الحمراء، فماذا ستقول؟

ستقول: قد يلتزم به بعضُ الناس، وقد يخالفه آخرون، مع استحقاق العقوبة على المخالفة.

فنقول: هذا مثالٌ يقرِّب لك صورة القضاء التشريعيّ، الذي فيه توجيهٌ واختبارٌ، لا جبرٌ وإلزامٌ تكوينيٌّ. ولله المثلُ الأعلى، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ هو من هذا الباب، أيْ أمرٌ تشريعيّ يكلّف العباد، ويترك لهم مجال الطاعة أو العصيان، ليترتَّب الثوابُ والعقاب.

وهذا ينسف الإشكالَ المطروح من أصله، فإنّ قضاء الله تعالى بأنْ يُعبَد وحده إنّما هو قضاءٌ تشريعيٌّ تكليفيّ، لا قضاءٌ تكوينيٌّ جبريّ، ولو كان تكوينيًّا لما بقي للابتلاء معنى، ولا استقام

(١) أنوار الأصول، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج١، ص٢٦٣.

ثـوابٌ ولا عقـاب.

فمـن لـم يفـرّق بيـن القضـاء التشـريعيّ والقضـاء التكوينـيّ، ولـم يتأمّـل فـي حكمـة اللـه عـزّ وجـلّ فـي جعـل دار الدنيـا ميدانًـا للاختبـار، توهّـم أنّ تـرك النـاس لعبـادة اللـه نقـضٌ لمشـيئته، والحـالّ أنّ المشـيئة الإلهيّـة إنّمـا اقتضـت أنْ يُجعـل الإنسـان مختـارًا فـي فعْلـه، ليُجـازى علـى مـا اختـاره لنفسـه مـن طاعـةٍ أو عصيـانٍ.

وبهـذا البيـان -أيضًـا- تتّضـح حقيقـة القضـاء والقـدر، وأنّ مـا يقـع فـي الكـون مـن سُـننٍ وأسـبابٍ إنمـا هـو مـن قضـاء اللـه التكوينـيّ، ولكـنْ مـع ذلـك جعـل اللـه للإنسـان اختيـارًا ينـدرج هـو الآخـر تحـت القضـاء والقـدر، فلا يسـقُط التكليـفُ، ولا ينتفـي الامتحـانُ، ولا يبطـل الثـوابُ والعقـاب. ومـن هنـا يتبيّـن أنّ الجبريّـة باطلـةٌ، وأنّ التفويـض المطلـق أيضًـا مرفـوضٌ، وإنمـا الحـقُّ مـا عليـه مذهـب أهـل البيـت عليهم السلام: «لا جبـرَ ولا تفويـضَ، بـل أمـرٌ بيـن أمرَيـن»[1].

والحمـد للـه أوّلًا وآخـرًا، وصلّـى اللـه، وسـلّم علـى سـيّدنا ونبيّنـا محمّـد وآلـه الطيّبيـن الطاهريـن المعصوميـن المنتجَبيـن.

❁❁❁

(١) الكافي، ج٢، ص١٦٠.

السؤال:

يزعم بعضُ الحداثيّين أنّ القصص القرآنيّ رمزيٌّ لا يُراد به الإخبار عن وقائع حقيقيّة، بل مجرّدُ تمثيلٍ لمعانٍ أخلاقيّة وقِيَميّة، وأنّ الفهم الحرفيّ يُقيِّد النصَّ ويمنعُه من مواكبة الأزمنة.. فهل هذا القول صحيح؟ وكيف يُرَدّ عليه؟.

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ ما يدّعيه بعضُ المعاصرين، ممّن تأثّر بمناهج الحداثة الغربيّة، من أنّ القَصص القرآنيّ ليس تسجيلًا لوقائع خارجيّة، وإنما هو بناءٌ رمزيٌّ يُقصد منه إيصال المعاني والقِيم دون الإخبار عن أحداثٍ حقيقيّة، هو زعمٌ باطلٌ مردود، لما يشتمل عليه من مخالفة للنصوص المحكَمة، ولما يستلزمُه من مفاسد عقليّة وعقَديّة.. وبيان ذلك في وجوه:

الأول: أن الله تعالى وصف القرآن بأنه بيانٌ وهدى وبلاغٌ ونور،

فقال: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾[١]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٢]. والبيان يقتضي الوضوح وإفهام المقصود بلا لبسٍ، فإذا جعلتَ الأخبار التي ظاهرها الإخبار عن الوقائع الخارجيّة رموزًا مجازيّة لا تدلّ على تلك الوقائع، بل على معانٍ أخرى لا تُفهَم إلا بتأويلاتٍ خارجة عن اللسان العربي وعن الدلالة العرفيّة، فقد جعلتَ الكتابَ مُسقِطًا لصفة البيان، وهذا خلافُ ما أخبر به الله سبحانه عن كتابه، وخلاف مقتضى الحكمة الإلهيّة التي تقتضي أنْ يكون الخطابُ مفهومًا للناس بحسب مقتضيات لغتهم وفهْمهم.

الثاني: أنّ القرآن الكريم قد بيَّن أنّ هذه الأخبار وقعت في الخارج، وصرّح بأنها قصص حقّ ووقائع غيبيّة أوحاها الله إلى نبيِّه، فقال جلّ شأنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾[٣]، وقال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[٤]. فالآيات دالّة بوضوحٍ على أنّ هذه القصص أخبار صادقة عن وقائع وقعتْ، وأنها من الغيب الذي أوحاه الله إلى نبيِّه، فصرْفها عن ظاهرها بلا قرينةٍ قطعيّة خروجٌ عن مقتضى الظهور، وارتكابٌ للتأويل بلا دليلٍ، وهو باطلٌ عند المحقِّقين.

الثالث: أن الإخبار عن وقائعَ لم تقع، مع العلم بعدم وقوعها، إما أنْ يكون صدقًا أو كذبًا، ولا ثالث لهما، والصدقُ هو مطابقة

(١) ابراهيم:٥٢.
(٢) الشعراء:١٩٥.
(٣) الكهف:١٣.
(٤) يوسف:١٠٢.

الخبر للواقع، والكذبُ خلافه. فإذا نُسِب إلى الله عزّ وجل أنه أخبر بهذه القصص على أنها وقائع حقيقيّة، وهي ليستْ كذلك، فقد نُسب إليه الكذب -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- وهو محالٌ؛ لأن الكذب نقصٌ، والنقصُ ممتنعٌ في حقّ الله سبحانه.

وإما أنْ يقال: إنها رمزيّةٌ لا كذبَ فيها.. فيُقال: إنّ الرمز لا يتحقَّق إلا بوجود قرينةٍ صارفةٍ عن إرادة الحقيقة، وإلّا لزم الإيهام والكذب، ولا توجد قرينةٌ لفظية ولا سياقيّة معتبَرة في النصوص القرآنيّة تصرِف هذه الأخبار عن ظاهرها، بل القرائنُ كلُّها مؤكِّدة لإرادة الحقيقة والواقع، فلا يصحّ دعوى الرمزيّة إلا على وجهٍ من التعسُّف والمصادرة على المطلوب.

الرابع: أنّ فتح باب التأويل الرمزيّ بلا دليلٍ، يقتضي جواز تأويل سائر العقائد والأخبار الغيبيّة بالرمز، فيؤول المعاد بالرمزيّة، والجنة والنار بالرمزيّة، والصراط والميزان بالرمزيّة، ولا ينضبط بعدَ هذا حدٌّ للقطعيّات الدينيّة، ويؤول الدين إلى أهواء المتأوِّلين، وهذا إبطالٌ لليقينيّات، وإخراجٌ للعقيدة عن كونها معرفة يقينيّة إلى كونها ظنونًا وأوهامًا، وهو عين الهدم للأصول.

الخامس: أن هذه الدعوى لم تصدر عن مسلك أعلام الأمة، ولا عن طريقة أهل البيت عليهم السلام، ولا عن سيرتهم في تفسير القرآن، ولا عن أئمة اللغة، بل هي مستوردةٌ من مناهج النقد الغربيّ التي تتعامل مع النصوص المقدّسة تعاملها مع الأدب البشريّ، وهذا

المنهج مرفوضٌ جملةً وتفصيلًا، لمخالفته الأصل القطعيّ بأنّ القرآن وحيٌ إلهيٌّ منزَل، له حجِّيَّته الذاتيّة وصدقه الموضوعيّ، ولا يخضع لمناهج القراءة الحداثيّة التي تنكر الحقيقة المطلقة.

ويتحصَّل مما تقدَّم، أنّ دعوى الرمزيّة في القَصص القرآنيّ دعوى باطلةٌ من جهة مخالفتها لظهور النصوص، ومناقضتها لصفة البيان، ولزومها الطعن في الصدق الإلهيّ، واستلزامها التلاعب بالعقيدة، وابتنائها على منهجٍ دخيلٍ غريب.. وعليه، فهي ساقطةٌ في معيار التدقيق العلميّ، مردودةٌ عند العلماء، لا يُصغى إليها، ولا يُتوقَّف عندها.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال:

ماذا نجيب عمّن يَسأل: هل القرآنُ الكريم شعرٌ أو نثرٌ؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

ينبغي قبل الجواب المباشر على هذا السؤال، تحريرُ جهة السؤال وتحليلُ بنيته المنطقيّة، ليتبيّن هل السؤالُ تامٌّ في حدِّه، أو مشحونٌ بمقدمة خفيّة تحتاج إلى تفكيكٍ.

إنّ سؤال: (هل القرآن شعر أو نثر؟)، في ظاهره طلبُ تصنيفٍ، ولكنه يستبطن قيدًا غير مصرَّحٍ به، وهو حصر القرآن الكريم ضمن أحد قسمَي الكلام البشريّ المعروفَين في الثقافة اللغويّة العربيّة، إمّا الشعر، وإمّا النثر، وكأنّه لا ثالثَ لهما.

وهذا الحصر - بنظر التحقيق - حصرٌ مانعٌ للثالث ظنًّا، لكنه غيرُ مانعٍ واقعًا، بل هو تقسيمٌ اصطلاحيّ أدبيّ لا يستوعب كلَّ أصناف الكلام الممكنة، فضلًا عن أنْ يستوعب الوحي الإلهيَّ

المنـزَل المعجِـز الخـارج عـن حـدود المألـوف والمعتـاد.

أولًا: إبطال مقدمة السؤال:

إنّ هـذا الحصـر بين الشـعر والنثر ليس تقسـيمًا عقليًّا استغراقيًّا (مانعًا جامعًا)، بـل هـو تقسـيمٌ عرفـيٌّ قائـمٌ على اصطلاحـات وضعيّـة أدبيّـة، متعلِّقـة بالـكلام البشـريّ، ولـم يـدّع أحدٌ من أهـل العلم أو اللغـة أو البلاغة أنّ كلَّ كلامٍ ممكـنٍ لا يخـرج عن هذين القالبَين.. بل الواقع يشـهد بخروج بعـض أسـاليب التعبير عـن هذا القيـد؛ ولـذا نـصّ البلاغيّـون والأصوليّون والمتكلّمـون على أنّ القـرآنَ الكريم نظمٌ مستقلٌّ، وجنسٌ ثالث، لا ينطبق عليـه حـدّ الشـعر، ولا يدخـل تحـت حـدّ النثر، بـل لـه خصائصـه المتميِّـزة فـي التركيـب والإيقـاع والأسـلوب والمعانـي، وهـذا مـا أشـار إليـه البلغـاء فـي وصفهـم كلام أمير المؤمنيـن عليه السلام بقولهـم: «دون كلامِ الخالـق وفوقَ كلامِ المخلوقيـن»[1]، فكيـف بـكلام الخالـق ذاته؟!

ثانيًا: الجواب على فرض التسليم الجدليّ:

ولـو سَـلَّمْنا جَـدَلًا بالتقسـيم المذكـور، لـم يلـزم منـه مـا يرومـون إثباتـه؛ وذلـك لأنّ القـرآن الكريـم لا يُعـدُّ شـعرًا حقيقـةً، لا مـن جهـة الـوزن العروضـيّ، ولا مـن جهـة التقفيـة، ولا مـن جهـة الوظيفـة والغـرض المقصـود مـن الشـعر فـي لسـان العـرب، وقـد نفـى القـرآنُ ذلـك صراحـةً فـي محكـم التنزيـل، فقـال جـلّ شـأنه: ﴿وَمَـا عَلَّمْنَـاهُ الشِّـعْرَ وَمَـا يَنْبَغِـي لَـهُ﴾[2]، وهـذا النفـيُ وإنْ كان متعلِّقًـا بخصـوص شـخص النبـيّ الأعظـم

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص٥٣٠.
(٢) يس:٦٩.

ﷺ، إلّا أنّه يتضمّن بطريق اللزوم وصفَ القرآن الذي هو كلامه المتلوُّ عنه، إذ من المعلوم أنّ المتكلّم إذا انتفى عنه الاتصاف بصفةٍ في مقامٍ تكون تلك الصفة لازمةً لمقولاته، كان لازمًا انتفاؤها عن أقواله كذلك، لا سيما مع قرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[١]، إذ صرّح بالنفي عن عين الكلام الموحَى.

وكذلك لا يصحُّ عدّه نثرًا اصطلاحيًّا محضًا، فإنّ النثر في اصطلاح البلاغيّين كلامٌ مرسلٌ غير موزونٍ ولا مقفّى، مألوف النسق لدى العرب، والقرآن خارجٌ عن ذلك المألوف، متميّزٌ بأسلوبٍ إلهيٍّ فريدٍ لا نظير له في كلام البشر.

وقد بيّن أئمة أهل البيت عليهم السلام هذا المعنى، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ كلام الباري سبحانه لا يُشبه كلام الخلق، كما لا تشبه أفعالُه أفعالَهم»[٢].

وأمّا كلمات أعلام التحقيق، فقد قال الشيخ معرفة في وصفه: «لا هو شعرٌ كشعرهم ولا هو نثرٌ كنثرهم، ولا فيه تكلّفُ أهل السجع والكهانة، على أنه جمعٌ بين مزايا أنواع الكلام الرفيع، فيه أناقة الشعر وطلاقة النثر وجزالة السجع الرصين، ممّا لم يوجد له نظيرٌ، ولم يخلفه أبدًا بديلٌ، ولا استطاع أحدٌ أنْ يماريه أو يجاريه، لا في أسلوبه ولا في نظمه البديع»[٣].

---

(١) الحاقة: ٤١.

(٢) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٢٠١.

(٣) التمهيد في علوم القرآن، ج٥، ص١٠.

فثبت بما تقدّم أنّ القرآن متفرِّدٌ بأسلوبٍ خاصٍّ خارجٍ عن المألوف البشريّ، لا يَنطبِق عليه تقسيم الكلام إلى شعرٍ أو نثرٍ اصطلاحيَّين، بل هو كلامٌ إلهيٌّ معجِزٌ جامعٌ لمحاسن الكلام، متعالٍ عن قيود الصناعات البشريّة.

ويَظهر مما تقدّم أنّ التقسيم المذكور باطلٌ على القرآن الكريم، سواءٌ أُريد به التقسيم الحقيقيّ أو الاصطلاحيّ؛ إذ القرآن لا ينطبق عليه أحدهما، بل هو متفرِّدٌ بأسلوبه، خارجٌ عن مألوف كلام البشر، ولا يُقاسُ كلام الخالق على كلام المخلوقين.

فإنّ النصوص دلّت على أنّه ليس بشعرٍ ولا نثرٍ اصطلاحيّ، بل هو كلامٌ إلهيٌّ معجِز، جنسٌ ثالثٌ، ونظمٌ مستقلّ، لا تحيط به حدود الصناعات البشريّة.. فلا يلزم أنْ يخضع بيانُ الله عزّ وجلَّ، لقوالب بيان البشر، ولا أنْ يُلزَم بقوانينهم الوضعيّة.

وعليه، فإنّ السؤال مبنيٌّ على تقسيمٍ غير مانع ولا جامع، ومشتمل على مصادرةٍ على المطلوب، فلا يصحُّ إلزامُ القرآن بالحصر بين الشعر والنثر.

فالقرآنُ كلامٌ متفرِّدٌ، معجِزٌ، أعلى مِن أنْ يُحاكَم بقوالب أهل الصناعة والاصطلاح.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال:

يزعم بعضهم أنّ وصف المثلية بكونها «غير طبيعية» فكرة أوروبية مسيحية، وأنّ القرآن لم يذكرها ولم يحرّمها، لأن لفظ «المثلية» غير موجود فيه، فما الجواب؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

هذه شبْهة يُراد بها نقض الحكم الشرعيّ في الفعل المسمّى اليوم بـ (المثليّة الجنسيّة)، وقد بُنيت على ثلاثة أركان:

١- إنكار ورود اللفظ في القرآن الكريم.

٢- إنكار التحريم بزعم التأثُّر بالمسيحيّة.

٣- إنكار مخالفتِه للفطرة.

وهي من شُبَه التأويل الثقافيّ التي تُلبّس على العوامّ، ويُراد بها شرعنة الفاحشة وتبديل معالم الشريعة.

لكنّ هذه الدعوى، عند التحقيق العلميّ، تفتقد إلى الأساس القرآنيّ والفقهيّ، بل هي مجرّد خلطٍ بين المصطلحات الحديثة والألفاظ الشرعيّة، وبين المفاهيم الدخيلة والحقائق الأصيلة في الشريعة.

إنّ القرآن الكريم وإنْ لم يستخدم لفظ المثليّة الجنسيّة، كما هو متداوَلٌ اليوم، إلا أنّه تناول ذات المضمون بالفعل الصريح والوصف الدقيق والتقريع الشديد.

ففي معرض ذمِّه لأفعال قوم لوطٍ عليه السلام، حكى القرآنُ الكريم على لسانه قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[2].

فما الذي وصفه القرآنُ بالفاحشة؟

وما الذي عدّه خروجًا عن سُنن الخلق الأولى؟

إنّه ذات الفعل الذي يُسمّى اليوم بـ«المثليّة»، وهو إتيان الرجال شهوةً من دون النساء، وقد بيّن القرآن أنه لم يَسبِق إليه أحدٌ، في إشارة إلى أنّه منكر جديد شاذٌّ لم تسِرْ عليه البشريّة في فطرتها الأولى.

---

(١) الشعراء: ١٦٥-١٦٦.

(٢) الأعراف: ٨٠.

وعليه، فالفعل في منظور القرآن الكريم:

١ - فاحشةٌ عظيمة.

٢ - شذوذٌ عمّا خُلق للإنسان من أزواج.

٣ - اعتداءٌ على نظام الفطرة.

٤ - إسرافٌ في الانحراف.

وقد دلَّت السُّنّة الشريفة على ما دلّ عليه ظاهر الكتاب، بل جاءت في بيان حرمة هذا الفعل الشنيع بأوضح البيان، وصرّحتْ بكبْره وعِظَم جرمه، وبيّنت الحدّ الشرعي المترتِّب عليه، ولم تتركْ فيه مجالًا للمداهنة أو التردُّد.. فكلّ ذلك شاهدٌ بيِّنٌ على أنّ الإسلام لم يسكتْ عن هذا الفعل القبيح، بل حرّمه تحريمًا قطعيًّا، وعدّه من موجبات الهلاك، لما فيه من نقضٍ للفطرة، وإفسادٍ للمجتمع، وإهلاكٍ للنسل، وانحرافٍ عن مقصود الخِلقة وغاية الابتلاء.

أما وصف المثليّة بكونها (غير طبيعيّة)، فليس هو استعارة من الغرب كما زعموا، بل هو توصيفٌ دقيق لمضمون قرآنيّ واضح، عبّرت عنه آيات الذِّكر الحكيم ببيانٍ محكمٍ قاطع، تُدين الفعل من جهة كونه فاحشة، ومن جهة كونه شذوذًا لم تعرفْه البشريّة قبل قوم لوط عليه السلام.

وبذلك نُدرِك خطأ مَن يدّعي أنّ الإسلام لا يُدين هذا الفعل؛ لأنّه لم يستخدم لفظ (المثليّة)، فإنّ الألفاظ لا تُحدِّد الأحكام،

وإنما تُستقى من مضمون الفعل وأثره وما يقتضيه في قواعد الشريعة وأصولها.

والخلاصة، الفعل المسمّى اليوم بـ (المثليّة الجنسيّة) محرَّمٌ بنصّ الكتاب والسُّنّة، ومخالف للفطرة التي فطَر اللهُ الناس عليها، ولا ينفعه التستُّر بمصطلحاتِ الحداثة ولا التبرير بالثقافات الدخيلة.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال:

إذا كان الله تعالى قد ختم على قلوب بعض العباد وطبع عليها، وقال في كتابه: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾، و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فكيف يكون هناك معنى للإصلاح والهداية بعد أن كانت الضلالة من الله والهداية ليست بأيدي الناس؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ القول بأنّ العبد لا يُصلَح، ولا يُقوَّم، ولا يُهدى؛ لأنّ الله قد أضلّه، وختم على قلبه، هو قولٌ مردودٌ، باطلُ المبدأ، فاسد المآل، مبنيّ على القول بالجبر، الذي طالما نبذه أئمة أهل البيت عليهم السلام، وعدُّوه من العقائد الباطلة التي تُفضي إلى نفي العدل الإلهيّ، وسلب الاختيار، وتعطيل الحساب، وتكذيب الوعد والوعيد، وكلُّها مفاسدُ تؤول إليها هذه الدعوى من حيث يشعر القائل أو لا يشعر.

وإنّ الآيات التي ساقها أصحاب هذه الشُّبهة -من قبيل قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾، و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، و﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، و﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾- إنما تُحمَل على معنى الجزاء لا الابتداء، أيْ أنّ الله سبحانه إنّما يُضِلّ مَن اختار الضلال، ويطبع على مَن أعرض عن الهداية، ويَصرف القلوب عن الرشد بعد أنْ أصرّت على الغيّ، ورفضت الحجّة تلو الحجة، فكان ما ورد في هذه الآيات من الطبع والختم والإضلال عقوبةً عادلة، لا جبرًا ولا حرمانًا ابتدائيًّا.

وقد أكَّد القرآن الكريم هذا المعنى في غير موضعٍ، وبيّن أنّ العبد هو الذي يختار، وأنّ الله سبحانه جعل له السبُل واضحة، وبوّأه النجدَين، وأراه سواء السبيل، ثم ترك له حريّة الإقبال والإدبار، فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[2]، فكانت الهداية هنا بمعنى الدلالة، أيْ بيّنّا له طريق الخير والشر، وأرسلنا له المرسلين، وأقمْنا له الحُجج والبراهين، فلا يُقال بعد هذا: إنّ الله تعالى أجبره على أحد الطريقين، بل هو الذي اختار، وعليه تقع التبِعة.

ويُعاضد هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3]، فإنّ المشيئة هنا مشيئةُ العبد، وقوله عزّ اسمه:

---

(١) الإنسان:٣.
(٢) البلد:١٠.
(٣) الكهف:٢٩.

﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[١]، فالرشد والغَيّ طريقان بيِّنان، والعبد مُخيّرٌ بينهما، فمَن اختار الغيّ فقد أتى من قِبَل نفسه، لا من جهة ربّه، فلا يجوز لمؤمنٍ أنْ ينسب إلى الله عزّ وجلّ الإضلال ابتداعًا ولا الطبع ابتداءً، فإنّ الله سبحانه لا يُضِلّ العباد على وجه المصادرة، ولا يطبع على القلوب من غير جُرمٍ، بل سنّته تعالى في عباده أنْ يُمهل مَن أعرض، فإذا أصرّ على العناد والزيغ، وانساق خلف هواه، خُذِل، وسُلِب التوفيق، وابتُلي بالطبع والختم على قلبه وسمْعه وبصره، جزاءً وفاقًا، لا ظلمًا ولا جَورًا، كما قال عزّ من قائل: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[٣]، فكان الطبع والإضلال أثرًا مترتِّبًا على الإعراض لا منشأً له، وحاشا لله تبارك وتعالى أنْ يمنع الهداية عمَّن صدق في طلبها، أو يُضِلّ عبدًا طلَب وجهَ الحقّ بإخلاص، أو يطبع على قلبٍ لم ينحرف عن الفطرة، فإنّه تعالى أعدل مِن أنْ يُعاقِب قبل تمام البيان، وأرحم من أن يُضِلّ من شاء الهداية، وهو القائل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، فبذلك يُعلم أنّ مَن طُبِع على قلبه، أو خُتِم على سمعه، إنما نزل به ذلك عن استحقاقٍ لا كما توهَّمه صاحب الشُّبهة.

وهذا هو المعتقد الحقّ الذي أَسَّس له أئمة أهل البيت عليهم السلام،

(١) البقرة:٢٥٦.
(٢) الأنعام:١١٠.
(٣) المنافقون:٣.

وبيّنوه لأصحابهم، وردّوا به على الجبريّة، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله أرحمُ بخلقه من أنْ يُجبِر خلقه على الذنوب، ثم يعذّبهم عليها، والله أعزّ مِن أنْ يريد أمرًا، فلا يكون»[١]، وعنه عليه السلام أيضًا: «لا جبر ولا تفويض، ولكنْ أمرٌ بين أمرين»[٢]، أيْ لا يُجبِر اللهُ العبد، ولا يُفوِّض إليه الأمر تمامًا بلا عناية، بل يمدُّه بالقدرة والعقل، ويهديه السبيل، ويترك له حريّة القرار، فإنْ شكَر فقد اهتدى، وإنْ كفر فقد ضلّ، وقد قال تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[٣].

فإذا كانت الهداية والضلالة منوطةً بالاختيار، وكان العبد هو المكلّف بالسعي، لم يصحَّ بعد ذلك أنْ يُقال: «دعْك من فلانٍ، فلا يُصلَح»، أو «ذاك لا يُقوَّم»، إذ كيف علمتَ أنه لا يُصلَح؟ وكيف عرفتَ أنّ الله حرَمه الهداية؟ وهل اطّلعت على الغيب؟ أو أتاك وحيٌ من عند الله؟ أو أنك استبطنْت في عقلك أنّ الله سبحانه يخلُق مَن لا يهتدي، ويحرمه الهداية ابتداءً، وهذا هو الجبر بعينه، وفيه تكذيبٌ صارخٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾، وتكذيبٌ لقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾، ورفضٌ لصريح قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٤]، حيث جعل الإزاغة جزاءً لا ابتداءً.

فالقول بأنّ فلانًا لا يُصلَح، هو في حقيقته نسبةُ الظلم إلى

(١) التوحيد للصدوق، ص٣٦٠.
(٢) الكافي، ج١، ص١٦٠.
(٣) الإسراء:١٥.
(٤) الصف:٥.

الله تعالى، وسلبٌ لاختيار العبد، وباطلٌ من أساسه، لا يصدُر إلّا مِن عقلٍ لم يتشرَّبْ بنور الفهم، ولم يهتدِ إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام، الذين أصلحوا عقولَ العباد، وأزالوا عنها أوهامَ الجبر، وبيَّنوا لهم أنّهم مسؤولون عمّا كسبوا، وأنه لا يُهلِك الله سبحانه نفسًا إلّا بعد تمام الحجّة وبلوغ البيان، فمَن قال بعد ذلك بأنه لا فائدةَ في النُّصح والتعليم والهِداية، فقد ضلّ السبيلَ، وعطّل الرسالةَ، وفتَح بابَ القعود واليأس على الناس.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال:

إذا كانت رؤيةُ الله تعالى مستحيلةً، فكيف طلبها نبيّ الله موسى عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾؟ أ لم يكن يعلم باستحالتها منذ بداية نبوّته؟ وهل تمرّ معرفةُ الأنبياء بالله بمراحل من التكامل العقَديّ؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ قضيّة طلب الرؤية من قِبَل نبيّ الله موسى عليه السلام هي من المسائل التي حاول بعضهم توظيفها لإثبات إمكان رؤية الله تعالى، أو للتشكيك في كمال المعرفة عندَ الأنبياء، غير أنّ التأمُّل في الآيات القرآنيّة والرجوع إلى النصوص المعتبَرة، يكشف بوضوحٍ زيف هذه الادّعاءات، ويُثبِت أنّ موسى عليه السلام كان على يقينٍ مطلقٍ باستحالة رؤية الله تعالى، وأنّ ما صدر منه لم يكنْ نابعًا من جهلٍ أو نقص في المعرفة، بل كان له بُعدٌ تربويّ وحجاجيّ يتعلّق بإقناع بني إسرائيل.

فالقرآن الكريم بيّنَ أنّ طلب رؤية الله تعالى كان شعارًا مرفوعًا من قِبَل بني إسرائيل، الذين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[١]، وهذه النبرة العجولة والجدليّة كانت ملازِمةً لهم في معظم مواقفهم مع أنبيائهم، مما اضطُرَّ موسى عليه السلام إلى اتّخاذ منهجٍ عمليٍّ في تفنيد شبُهاتهم وإبطال استكبارهم.

وعليه، فإنّ طلب موسى عليه السلام الرؤيةَ لم يكن عن حاجةٍ شخصيّة، بل كان استجابةً لما ألحّ عليه قومه فيه، بُغية إقامة الحجّة عليهم. وقد ورد في حديثِ الإمام الرضا عليه السلام أنّ موسى عليه السلام سأل اللهَ ذلك امتثالًا لأمرِه تعالى حين قال له: «يا موسى اسألني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم»[٢]، فكان ذلك استدراجًا لبني إسرائيل كي يدركوا بأنفسهم استحالةَ رؤية الله سبحانه، وهو ما حصل حين صُعِقوا لعظم ما طلبوه.

أما مَن زعَم أنّ موسى عليه السلام قد طلب الرؤية لنفسه، مدَّعيًا أنّ مفهوم التجسيم أو استحالة الرؤية لم يكن قد تجذَّر في وجدانه بعدُ، فهو لا يفقه مقام النبوّة، ولا يدرك ضرورة أنْ يكون النبيّ على أكمل درجات المعرفة بتوحيد الله وصفاته. فكيف يمكن لنبيٍّ مرسل، بل لنبيٍّ من أولي العزم أنْ يكون جاهلًا بهذه المسألة البديهيّة في التوحيد؟ وكيف يُعقَل أنّ موسى عليه السلام الذي جادل فرعون في ألوهيّة الله عزّ وجلّ، ودعا قومَه إلى التوحيد

(١) البقرة:٥٥.
(٢) بحار الأنوار، للعلّامة المجلسي، ج١٣، ص٢١٨.

الخالص، لم يكن قد أدرك بعدُ أنّ الله سبحانه ليس بجسمٍ، ولا تدركه الأبصار؟!

إنّ هذا الزعم يتناقض مع صريح القرآن، حيث نجد أنّ موسى عليه السلام عندما سمع نداء الله تعالى من الشجرة ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، لم يطلب رؤية مَن يخاطبه، ولم يستفسر عن مكانه أو هيأته، مما يدلّ على أنه كان على يقينٍ مطلقٍ بأنّ الله سبحانه ليس من سنخ الموجودات التي تدركها الأبصار. فكيف يُقال بعد ذلك: إنه لم يكنْ قد استوعب بعدُ استحالة رؤية الله عزّ وجلّ؟!

إذن، موسى عليه السلام كانَ عالمًا بحقائق التوحيد منذ البداية، وإنّ طلبه للرؤية كان فقط لإظهار خطأ بني إسرائيل وإثبات بُطلان دعواهم بالتجربة العمليّة.. وهكذا، فإنّ المحاولة الفاشلة لتصوير موسى عليه السلام وكأنه كان يكتسب العقيدة بنحوٍ تدريجيٍّ، لا تصمد أمام النصوص القرآنيّة والأحاديث الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وهي محاولةٌ لترويج فكرة أنّ الأنبياء غير معصومين، وهي النظريةُ نفسها التي فتحت البابَ أمام التشكيك في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قِبَل بعض المذاهب، بزعم أنه مرّ بمراحل من الشك قبل أنْ يتيقَّن من نبوّته!

والحقّ الذي لا يماري فيه عاقلٌ منصِفٌ أنّ النبوة اصطفاءٌ من الله عزّ وجلّ لمن كان في أعلى درجات الطهارة الفكريّة

(١) القصص: ٣٠.

والنفسيّة، وأنّ النبيّ لا يمرُّ بمراحل من الشك أو الغفلة عن التوحيد الخالص، بل هو منذ البداية معصومٌ عن كلِّ خطأ في العقيدة أو العمل، وهذا ما ينطبق تمامًا على نبيِّ الله موسى عليه السلام.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال:

كيف يُجمَع بين قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الذي يوهم أن الخلود مشروط ببقاء السماوات والأرض، وبين الآيات التي تدلّ على أبديّة الجنة والنار مع أن السماوات والأرض تزول يوم القيامة؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

إنّ الإشكال المطروح حول قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ في الجنَّة والنار، قد يَتوهَّم منه البعض أنّ هذا الخلود محدودٌ بزوال السَّماوات والأرض، مما يجعله متناقضًا مع آياتٍ أخرى تصرِّح بأنّ الخلود أبديٌّ بلا انقطاع، ولكنّ الحقيقة التي بيّنها أهلُ البيت عليهم السلام تنفي هذا التوهُّم، وتكشف المراد الواقعيّ من الآية.

إنّ المراد بالسماوات والأرض هنا ليس السماوات والأرض الدنيويّة التي ستزول يوم القيامة، وإنما هي سماواتٌ وأرضٌ أخرى

تتبدَّل بها هذه العوالم بعد يوم الحساب، كما نصّ القرآن الكريم في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾، أيْ أنّ هناك نظامًا آخر من السماوات والأرض يختلف عن النظام المشهود في الدُّنيا، وهو الذي يكون في عالمِ الآخرة. فالتعبير «ما دامت السماوات والأرض» في هذه الآية لا يعني أنَّهما سيفنيان في يومٍ ما، وينتهي الخلود معهما، بل المقصود أنّ الخلود مستمرٌّ ببقاء عالم الآخرة الذي لا يعتريه الفَناء.

وأيضًا، فإنّ هذا الأسلوب هو من أساليب العرب في التعبير عن التأبيد والدّوام، كما يقال: «سأعبدُ الله ما دامت السماءُ فوق الأرض» أو «الأرضُ منيرةٌ ما دامت الشمس تشرق»، فلا يعني ذلك أنّ الحكم ينتهي بانتهاء هذه الأشياء، بل هو أسلوبٌ مجازيٌّ يرادُ به الاستمرار. وقد أكَّد أهل البيت عليهم السلام ذلك، ففي رواية عن الإمام السَّجاد عليه السلام أنه قال: «"تبدَّل الأرض غير الأرض" يعني بأرضٍ لم يُكتسَبْ عليها الذنوب، بارزة ليستْ عليها جبال ولا نبات كما دحاها أول مرّة»، وقال العلّامة الطباطبائي في الميزان بعد إيراده هذه الرواية: «وفيه دلالةٌ على حدوث الجبال، وكذا النبات بعد تمام خلقة الأرض»[1]، مما يدلّ بوضوحٍ على أنّ المراد عالمُ الآخرة، الذي هو باقٍ ببقاء أمر الله عز وجل.

وبذلك، يتبيَّن أنّ الآية لا تناقض الآيات التي تصرِّح بالخلود الأبديّ، بل تؤكِّد عليه بأسلوب آخر، فلا انفصالَ بين النصوص

(١) تفسير الميزان، للطباطبائي، ج١٢، ص٩١.

القرآنية، بل هي يفسِّر بعضُها بعضًا في ضوء بيانات آل محمد عليهم السلام، الذين هم ترجمان الوحي ومَخزَن العلم.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

السؤال

يستدلّ بعضُ المجسِّمة بقول فرعون في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [القصص: ٣٨] على أنّ الله في السماء، فكيف يُردّ على هذا الاستدلال؟

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلام على من نزّلَ القرآنَ على صدره، فبلّغه إلى أمته، وعلى آلِه المعصومين الذين بيّنوا ما أَمر اللهُ به.

لا شكّ أنّ هذه الشُّبهة التي يثيرها المجسِّمة تكشف عن جهلِهم بأساليب البيان القرآنيّ، فضلًا عن افتقارهم إلى البصيرة العقليّة التي تميِّز بين المحكَم والمتشابه؛ إذ إنهم يتعاملون مع كلام الله كما لو كان خطابًا بشريًّا خاليًا من البلاغة والاستعارات، غير مدركين أنّ القرآن الكريم أُنزِل بلسانٍ عربيٍّ مبين، وأنه يتضمَّن أساليب بيانيّة لا يفهمها إلا من كان له قلبٌ أو ألقى السمع، وهو شهيد.

إنّ هذه الآية التي يستدلّون بها، وهي قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[1]، هي في واقع الأمر ليستْ إلا حكايةً عن كلام فرعون الطاغية الذي ادّعى الألوهيّة، وكذّب برسالة نبيّ الله موسى عليه السلام.. فهل يُعقل أنْ يُتَّخذ كلامُ فرعون حجةً في التوحيد؟ وهل صار هذا الطاغية إمامًا في العقيدة حتى يُستند إلى أقواله في إثبات الجسميّة لله سبحانه وتعالى؟!

إنَّ هذا لَمِن أعجب العجَب؛ إذ إنّ منطق هؤلاء المجسِّمة يقتضي أنْ نجعل فرعون مرجعًا في معرفة الله تعالى، مع أنّ القرآن الكريم يصفه بالكذب والطغيان والفساد.

وإذا تأمَّلنا في مضمون الآية، وجدنا أنّ فرعون لم يكن جادًّا في بحثه عن الإله، وإنما كان يسخر من دعوة موسى عليه السلام ويحاول تضليل قومِه بعباراتٍ خطابيّةٍ ظاهرها الجدّ، وباطنها السخرية والاستهزاء، فهو الذي قال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، وهو الذي أمر هامان ببناء صرحٍ ليطّلع إلى إله موسى عليه السلام، وكأنه يريد أنْ يوهم الناس بأنّ موسى عليه السلام يتحدَّث عن إلهٍ مادّيٍّ يمكن الوصول إليه ببناء برجٍ عالٍ، وعلى رغم ذلك فإنّ هؤلاء المجسِّمة -على جهلهم- أخذوا هذه السخرية الفرعونيّة، وجعلوها برهانًا على عقيدتهم الفاسدة في أنّ الله

(١) القصص:٣٨.

تعالى في السماء!

إنّ هذا الفهم الساذج يتناقض تمامًا مع المبادئ العقليّة التي توجب تنزيه الله سبحانه عن الحدود والجهات؛ إذ لو كان الله سبحانه وتعالى في السماء -كما يزعم هؤلاء- للزم أنْ يكون محدودًا بمكانٍ، وكلّ محدود محتاجٌ إلى من يحدّه، والمحتاج مخلوقٌ، ولا يكون إلهًا.. ولو كان في جهة، للزم أنْ يكون فوقه شيءٌ، وتحته شيء، ولصار محصورًا في نطاقٍ معيَّن، في حين أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]، مما يدلّ بوضوحٍ على أنه لا يُشبه المخلوقات في شيءٍ، لا في الجسميّة، ولا في المكان، ولا في الحدود.

وإذا كان العقل يقضي بأنَّ الله سبحانه منزّه عن الجهة، فإنّ النقل أيضًا يؤكِّد ذلك، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «كان الله ولا مكان، وهو الآن على ما كان»[2]، مما يعني أنّ الله سبحانه لم يكن محتاجًا إلى مكانٍ قبل خلْق السماوات والأرض، ولا يحتاج إلى مكانٍ بعدها، وإلا لكان قابلًا للتغيُّر، والتغيُّر من صفات المخلوقين. كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَن زعم أنّ الله في شيءٍ، أو من شيء، أو على شيء فقد أشرك؛ لأنه إنْ كان في شيءٍ فقد حُدَّ، وإنْ كان على شيء فقد حُمِل، وإنْ كان من شيء

(١) الشورى:١١.
(٢) الفَرق بين الفِرق، للنوبختي، ص٢٩٢.

فقد حُدِث»[١]، وهذا برهانٌ قاطع على أنّ القول بأنّ الله سبحانه في السماء ليس إلّا صورةً من صور الشرك؛ لأنه يستلزم التجسيم، والتجسيم يقتضي المحدوديّة، والمحدوديّة تنافي الألوهية.

إنّ الذي أوقع المجسِّمة في هذا الضلال هو تأثُّرهم بالعقائد الدخيلة، فقد كان اليهود أول من قال: إنّ الله جسم، وأدخلوا هذه الفكرة في تراث بعض الفِرق الإسلاميّة المنحرفة، حتى صار بعضهم -وعلى رأسهم ابن تيمية- يقول: «إنّ الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجةً من درج المنبر»[٢]، وإنه يستقرّ فوق العرش كما تستقرّ الأجسام[٣]، غير منتبهين إلى أنهم بذلك ينسبون إلى الله تعالى صفات المخلوقين، ويجعلونه شبيهًا بعباده، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وخلاصة الأمر أنّ هذه الآية الكريمة ليست إلا نقلًا لكلام فرعون المستهزئ، وليست تقريرًا لعقيدةٍ صحيحة، وأنّ القول بأنّ الله سبحانه في السماء قولٌ باطلٌ عقلًا ونقلًا، وهو في حقيقته تكرارٌ لما قاله فرعون قديمًا، وكأنّ المجسِّمة اليوم يعيدون الكلمات نفسها، ولكنْ بثوبٍ جديد.. فالحقّ كلّ الحقّ مع القرآن الكريم الذي ينفي عن الله تعالى التشبيه، ومع العقل الصريح الذي يوجب تنزيهه عن الحدود، ومع أهل البيت عليهم السلام الذين

(١) التوحيد، للشيخ الصدوق، ص١٧٨.
(٢) رحلة ابن بطوطة، ج١، ص١٢٨، ط. أكاديمية المملكة المغربية.
(٣) يُنظر: العلوّ، للذهبي، ص٢٦٧.

قالوا كلمة الفصل في رفض التجسيم والجهة، وليس مع هؤلاء الذين لم يفهموا من كلام الله سبحانه إلا ما فهِمه فرعون نفسه، وهو الجهل بعظمة الله عزّ وجلّ وحقيقته المطلقة.

والحمد لله أوّلًا وآخرًا، وصلّى الله، وسلّم على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين المعصومين المنتجَبين.

المحتويات

مقدمة المركز..... ٥
مقدمة مؤلف..... ١٢
مفهومُ خيانةِ امرأتي نوحٍ ولوط ٢٢
آدمُ عليه السلام خليفةُ الله وليس خليفةَ الملائكة والجنّ..... ٢٧
التكليف بما لا يُطاق والمؤاخذة على النسيان في الأمم السابقة..... ٣٤
يقين إبراهيمَ في القدرة الإلهية على إحياء الموتى..... ٣٩
كيف يُنسب الفهم إلى القلب مع أن الإدراك يكون بالدماغ؟..... ٤٢
القرآن وإطلاق لفظ (البحر) على الماء العذب والملح..... ٤٨
الفرق بين الآيتين ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ والروح فيها﴾ و﴿يُنَزِّلُ المَلائِكةَ بالروحِ﴾..... ٥٢
كيف يُفهم تحريم الخمر من الأمر القرآني باجتنابه؟..... ٦٣
سرُّ تخصيص القرآن لأبي لهبٍ وامرأتِه بالذكر في سورة المسَد..... ٧٧
هل تزوَّج النبيُّ داود بامرأة أوريا بعد قتله؟ ٨٢
دحض الاستدلال بظاهر الآية ﴿تِلكَ أُمَّةٌ قد خَلت﴾ على منع السؤال عن أحوال الصحابة..... ٩٠
القرآنُ عربيُّ اللسان عالميُّ الدعوة..... ٩٧

هل اليومُ عند الله ألفُ سنةٍ أو خمسون ألفًا؟..... ١٠١
هل يتحقَّق الإيمانُ مع إنكارِ بعضِ مضامينِ القرآن الكريم؟..... ١٠٤
الفسقُ اختيارُ المترَفين لا أمرُ ربِّ العالمين..... ١٠٨
هل صعوبةُ فهْم القرآن تدلّ على أنّه ليس للناس جميعًا؟..... ١١١
كيف نفهم نسبة النسيان إلى الله في الآيات؟..... ١١٤
ليس في القرآن أنّ اللهَ يتحسّر..... ١١٧
هل يحبُّ اللهُ الفرحين أو لا يحبّهم؟..... ١٢٠
كيف تجتمع سعةُ الرحمة مع وعيد العذاب؟..... ١٢٢
مَنْ قالَ: إنّ القرآن قدّم خلقَ الأرض على السماء؟!..... ١٢٥
لماذا قال اللهُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مع أنّ الناس ارتابوا؟..... ١٢٨
هل يرضى اللهُ بالشرّ؟..... ١٣١
هل تكلَّمَ القرآنُ عن الذكاءِ الاصطناعيِّ؟..... ١٣٣
هل ذَكَر القرآنُ عذاب القبر؟..... ١٣٦
لماذا أَسند القرآنُ الموتَ إلى النفسِ لا إلى الروح؟..... ١٣٩
اليومُ عند الله سبحانه غير اليوم عندنا..... ١٤٣
توهُّم إثبات الليل والنهار في البرزخ بآيةِ آل فرعون..... ١٤٧
هل يُجبِرُ اللهُ عزَّ وجلَّ النَّاسَ على الكُفرِ؟..... ١٥١
إذا كان بقاءُ الجسد بعد الموت برهانَ كرامةٍ ففرعون
في صفّ الأولياء..... ١٥٣

لو كان الميلُ عُذرًا لكان السارقُ والزاني والقاتلُ معذورِين.....١٥٧
إذا قضى اللهُ أنْ لا يُعبد سواه فكيف كفر به أكثرُ الخلق؟.....١٦٠
قصصُ القرآن حقائقُ لا أساطير.....١٦٥
القرآنُ ليس شعرًا ولا نثرًا.....١٦٩
هل ورد في القرآنِ ما يدلُّ على أنَّ المِثليةَ فعلٌ غيرُ فِطريٍّ؟.....١٧٣
دعوى اليأس من إرشاد مَن أضلّه اللهُ.....١٧٧
استحالةُ رؤية الله وتفسير طلب موسى عليه السلام.....١٨٢
الفرقُ بين السَّماوات والأرض الدنيويّة والأُخرويّة.....١٨٦
حينما يتّخذ المجسِّمة فرعون مرجعًا في العقيدة.....١٨٩

تم بحمد الله